



فقير

جديد

أسبوعية سياسية شاملة

اللاثنين

19 أكتوبر 2026م

8 جمادى الأول 1448هـ

102

(العيش بالقبضة)

تشكل الذرة الغذاء الرئيسي لأكثر من 80 بالمائة من السودانيين، فيما يغطي البقية احتياجاتهم بالرغيف ومشتقات القمح الأخرى. خلال الشهور المقبلة ستواجه هذه الغالبية مشقة تضاف إلى مشاق الحرب: لقد كسدت مشاريع الذرة وارتفعت الأسعار أكثر من أي وقت مضى.

عفوكم مردود عليكم

مدى ثلاثين عاماً، ولم تُنْهَ السجون والمعتقلات والتعذيب والتضييق عن مواصلة مقاومتها حتى سقط النظام في أبريل 2019.

هذه القوى تعرف الديكتاتوريات جيداً، وتعرف كيف تتخفى السلطة خلف شعارات القانون والنظام، وكيف تتحول الاتهامات الجنائية إلى أدوات لتصفية الحسابات السياسية، وكيف يُراد للخصم أن يدخل المشهد من بوابة الاعتذار والامتنان، لا من باب الحق والمواطنة. وقد دفعت هذه القوى أثماناً باهظة في مواجهة الاستبداد، ولم تنتظر يوماً منحة من نظام حتى تطالب بالديمقراطية، ولن تتوقف اليوم عند قرار يمنحها حصانة مؤقتة، كأنها في ضيافة سلطة تملك حق قبولها ورفضها.

إن العودة إلى السودان ليست امتيازاً تمنحه السلطة لمن تشاء، والمشاركة في الحوار ليست منحة من مجلس لا شرعية له، والتعبير عن الرأي ليس جريمة تحتاج إلى شطب بلاغ أو إسقاط تهمة. هذه حقوق لا تستقيم الدولة من دونها، ولا يكون الحوار جاداً إذا ظل المشاركون فيه رهائن لقرارات استثنائية قابلة للتغيير، أو إذا كان بعضهم يدخل البلاد مطمئناً إلى نفوذ السلاح، فيما يدخل آخرون تحت مظلة حصانة مؤقتة. والخطر أن القرار، بدلاً من أن يقطع مع منطق الملاحقة السياسية، قد يكرس فكرة أن السلطة هي التي تحدد من يستحق العفو، ومن يحتاج إلى الحماية، ومن يجوز له أن يتحدث، وتحت أي شروط. وهذه هي المعضلة التي ينبغي أن يواجهها أي حوار وطني يريد للسودان أن يخرج من دائرة الحرب والاستبداد؛ إذ لا يمكن بناء دولة مدنية ديمقراطية بعقلية الوصاية، ولا يمكن إقناع السودانين بجديّة الانتقال السياسي بينما تظل حقوقهم رهناً بإرادة من يمسكون بمفاصل السلطة.

القوى المدنية لا تحتاج إلى حصانة مؤقتة تسبق حواراً قد ينتهي، بل إلى ضمانات دستورية وقانونية دائمة تحمي حرية الرأي والتنظيم والعمل السياسي، وتمنع الاعتقال التعسفي والملاحقة بسبب المواقف، وتكفل استقلال القضاء وسيادة حكم القانون. وتحتاج، قبل ذلك وبعده، إلى وقف الحرب، وحماية المدنيين، ومحاسبة المسؤولين عن الانتهاكات، من دون انتقائية أو استثناءات تفرضها موازين القوة.

فالقوى المدنية التي صمدت ثلاثة عقود أمام نظام شمولي لم تنجح سجنه ومعتقلاته في إخضاعها، فلن تنتظر عفواً من أحد، ولن تستمد شرعيتها من قرار يصدره حاكم أو حصانة يحدد أجلها ديكتاتور والى في الدم ومتسربل بالمكر وغارق في الظلم ورافع الكذب والتدليس راية يمشی تحتها. القوى المدنية شرعيتها مستمدة من حق السودانين في الحرية والسلام والعدالة، ومن تاريخ طويل من مقاومة الاستبداد، ومن إيمانها بأن هذا البلد أكبر من سلطات رجل كل همه أن يبقى في كرسي السلطة، وأن هذه البلاد أبقي من الحروب العنيفة، وأحق بمستقبل لا يتحكم فيه السلاح ولا تصادره الوصاية. السودان لا يحتاج إلى سلطة تعفو عن خصومها السياسيين، بل إلى دولة تكف عن تجريمهم. ولا يحتاج إلى حصانة مؤقتة لممارسة الحقوق، بل إلى وطن لا تصبح فيه الحقوق جريمة، ولا يكون فيه العفو بديلاً عن العدالة، ولا تتحول فيه المشاركة في صنع المستقبل إلى منحة من أصحاب السلطة والسلاح.

في القرار الذي أصدره القائد العام للقوات المسلحة، الفريق أول ركن عبد الفتاح البرهان، بشطب البلاغات الجنائية المقيدة بواسطة أجهزة الدولة بحق قادة القوى المدنية الراضية للحرب، الراغبين بالمشاركة في الحوار السوداني السوداني، مفارقة سياسية وقانونية لا تخطئها العين؛ إذ يبدأ القرار بشطب البلاغات المرتبطة بالأراء والمواقف السياسية، ثم يمضي إلى منح المشاركين حصانة إجرائية مؤقتة تحول دون ملاحقتهم بسبب مواقفهم المرتبطة بالحوار. وهنا يبرز السؤال الذي لا يحتاج إلى كثير من التأويل: إذا كانت هذه البلاغات قد قيدت بسبب المواقف السياسية، فما الذي يستدعي الحديث عن حصانة مؤقتة، ومن أي سلطة يُمنح السودانيون حق التعبير عن آرائهم، ثم يُطلب منهم أن يطمئنوا إلى حصانة تحميهم من تبعاتها؟

إن شطب البلاغات، في حد ذاته، اعتراف ضمني بأن استخدام أجهزة الدولة في ملاحقة الخصوم السياسيين أمر يستوجب المراجعة، لكن إلحاقه بحصانة مؤقتة يترك الباب مفتوحاً أمام احتمال عودة الملاحقة بعد انتهاء الحوار. فالحصانة، مهما اتسع نطاقها، لا تصنع حقاً دائماً، ولا تؤسس لبيئة سياسية حرة، ولا تعالج أصل الأزمة المتمثل في توظيف مؤسسات الدولة وأجهزتها العدلية والأمنية في الصراع السياسي. والأصل أن يكون السودانيون جميعاً متساوين أمام القانون، وألا تتحول آراؤهم ومواقفهم السياسية إلى تهم جنائية، وألا يصبح حق العودة إلى الوطن مشروطاً بإذن من سلطة أو عفو من حاكم. لكن التناقض الأعمق في القرار يتجاوز مفرداته القانونية إلى طبيعة الخطاب السياسي الذي يحكم التعامل مع القوى السودانية. ففي الوقت الذي تفتح فيه الأبواب لاستقبال قادة الدعم السريع، الذين تحيط بهم اتهامات وانتهاكات جسيمة تتعلق بالقتل والنهب والاعتصاب وترويع المدنيين، ويُراد لبعضهم أن يظهروا في المشهد السياسي وكأنهم عائدون إلى منصة الأبطال، يجري التعامل مع قادة القوى المدنية الراضية للحرب كما لو أنهم متهمون ينتظرون العفو، أو مطلوبون يحتاجون إلى ضمانات استثنائية حتى يتمكنوا من دخول بلادهم والمشاركة في حوار بشأن مستقبلها.

وهنا لا يتعلق الأمر بالدعوة إلى حرمان أي طرف من حق المشاركة في عملية سياسية تنهي الحرب، بل يتعلق بالمعيار الذي تقاس به المواقف، وبالعدالة التي ينبغي ألا تتجزأ. فإذا كان الحوار ضرورة وطنية لا غنى عنها، فلا يجوز أن يتحول إلى وسيلة لإعادة تأهيل أصحاب السلاح سياسياً، بينما تحاصر القوى المدنية بالشكوك والانتهاكات، وتُقدّم مشاركتها بوصفها منحة من السلطة، لا حقاً أصيلاً لمواطني سودانيين. وإذا كانت هناك جرائم ارتكبت بحق السودانيين، فإن مكانها التحقيق المستقل والمحاسبة العادلة، لا التسويات التي تمنح حصانة من المساءلة، ولا الأحكام السياسية التي تُدين هذا الطرف وتبرئ ذاك قبل أن يقول القضاء كلمته.

إن القوى المدنية السودانية ليست طائفة على السياسة، ولا وليدة هذه الحرب، ولا مجموعة من الناشطين الذين ينتظرون إشارة من السلطة كي يمارسوا دورهم. إنها امتداد لتاريخ طويل من مقاومة الحكم العسكري والأنظمة الشمولية، من الذين قارعوا نظامي إبراهيم عبود وجعفر نميري، وأسهموا في إسقاطهما، إلى الأجيال التي واجهت نظام الإسلاميين على



(العيش بالقبضة)

تشكل الذرة الغذاء الرئيسي لأكثر من 80 بالمائة من السودانيين، فيما يغطي النقص احتياجاتهم بالبريف ومشتقات القمح الأخرى. خلال الشهور المقبلة ستواجه هذه الغالبية مشكلة تضاف إلى مشاق الحرب: لقد كسدت مشاريع الذرة وارتفعت الأسعار أكثر من أي وقت مضى.

من التفكير إلى السؤال
إلى أزمة الشرعية في السودان

وجدي كامل 14

شاي وعرديب وبوكس وكتشينة..
البرهان ومحاولة صناعة شعبية زائفة

حيدر المكاشفي 17

الديمقراطية الاجتماعية:
ما بعد الأيديولوجيا وأزمة
الاقتصاد السوداني

د. صلاح أحمد الحبو 32

من التنظيم إلى الدولة الموازية
الأنثروبولوجيا الاجتماعية للحركة
الإسلامية السودانية

عادل يعقوب أحمد نور 35

بين خطاب الوطن وتحالف الحرب
مناوي .. من زعامة الى الهامش
الى مشروع الدولة

حاتم أيوب أبو الحسن 47

فخ الجيوش البديلة
عندما يزرع السودان بذور
تفكيكه....

يوسف الغوث 60

جنيه نيفاشا.. جنيه.. حميدتي

د. كمال الشريف 63

حيدر إبراهيم .. إرث معرفي يتجاوز الغياب

محمد الأمين عبد النبي 74

من يحمي السودانيين
من حرب السماء؟!

المسيرات تحصد أرواح السودانيين
وتطارده ما تبقى من الحياة

04

مئات الأطنان من
«القول المصري»
بمنفذ القلابات
تواجه مصيرًا مجهولاً

20

مشروع
الجزيرة..
أسراب الطيور تبدد
أحلام المزارعين

23

«الجنيه» في
دوامة التراجع
والأعباء المعيشية
للسودانيين تتضاعف

27

جنوب كردفان..
الجوع والمرض
والنزوح تفاقم
معاناة السكان



38

النهود..
الدعم السريع
يغلق شريان
حياة الناس

42

«الحريق»
في عالم
الحكومة
الموازي

45

تفاقم
حالات
الطفح الجلدي
في أم درمان

50

ابتسام السماني
تحكي في (أكتوبر
الوردي) معركتها
مع سرطان الثدي



53

نشيد شعري
واحد ممتد
ليوسف
الحبوب

65

تصدر عن

MAARIF CENTER FOR STRATEGIC STUDIES LTD
REGISTERED OFFICE OF THE COMPANY IS SITUATED AT:
UGANDA, CENTRAL, KAMPALA, CENTRAL DIVISION, BUKESA, NSALO
POSTAL ADDRESS 177732 KAMPALA GPO



رئيس التحرير
عثمان فضل الله





من يحمي السودانيين من حرب السماء؟! المسيّرات تحصد أرواح السودانيين وتطاردها تبقى من الحياة

توسعت هجمات الطائرات المسيّرة في السودان منذ اندلاع الحرب في أبريل 2023، مسجلة أكثر من ألف هجوم موثق، تجاوزت آثارها خطوط القتال لتتطال المدن والأسواق والمستشفيات ومرافق الخدمات.

ملخص

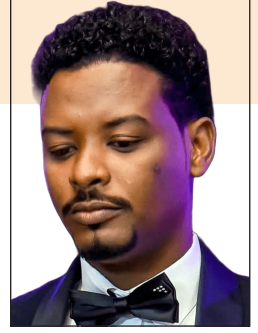
لم تقتصر الخسائر على الأرواح، بل امتدت إلى محطات الكهرباء والوقود والمنشآت الحيوية، ما أدى إلى انقطاع الخدمات وتعقيد وصول المساعدات الإنسانية، فيما بات النازحون أنفسهم عرضة للهجمات في المناطق التي لجأوا إليها بحثاً عن الأمان.

تكشف البيانات تصاعداً خطيراً في الهجمات، إذ قُتل أكثر من ألف مدني بضربات المسيّرات خلال الأشهر الخمسة الأولى من عام 2026، وفق الأمم المتحدة، وسط تزايد المخاوف من اتساع دائرة الخطر.

يطرح هذا التصعيد سؤالاً ملحاً عن الجهة التي تحمي المدنيين من «حرب السماء»، في ظل ضرورة وقف استهدافهم، والتحقيق المستقل في الهجمات، ومحاسبة المسؤولين عن الانتهاكات، ومنع تدفق الأسلحة المتطورة إلى أطراف النزاع.

أكثر من ألف هجوم منذ اندلاع الحرب، وارتفاع حاد في أعداد الضحايا، واستهداف للأسواق والمستشفيات ومحطات الكهرباء.

حسام حامد



«أكثر من ألف هجوم منذ اندلاع الحرب، وارتفاع حاد في أعداد الضحايا، واستهداف للأسواق والمستشفيات ومحطات الكهرباء، المسيّرات تتجاوز خطوط القتال، والمواطن السوداني في مرمى النار أينما ذهب».

الحرب في السودان ليست محصورة في الشوارع التي تتبادل فيها القوات القصف، ولا في المدن التي تحاصرها المدافع، ولا في خطوط المواجهة التي تتقدم وتراجع عليها الجيوش؛ لقد امتدت إلى السماء، وأصبح صوت المسيّرة إنذارًا بالموت قد يسمعه المواطن في سوقه، أو داخل مستشفى، أو قرب محطة كهرباء، أو في منطقة نزح إليها هربًا من جحيم المعارك.

منذ 15 أبريل 2023، أخذ استخدام الطائرات المسيّرة يتوسع في الحرب بين القوات المسلحة السودانية وقوات الدعم السريع، حتى تحولت هذه الأسلحة إلى إحدى أخطر أدوات القتل والتدمير في النزاع، إذ لم تعد المسألة مجرد تطور في أساليب القتال؛ لأن الأرقام تكشف اتساع نطاق الهجمات، وتزايد قدرتها على الوصول إلى مناطق بعيدة عن خطوط الاشتباك، وارتفاع الثمن الذي يدفعه المدنيون من أرواحهم وأمنهم ومصادر عيشهم.

وفي ذات الوقت، وبحسب تحليل نشرته الجزيرة في 3 فبراير 2026، استنادًا إلى بيانات مشروع رصد مواقع وأحداث النزاعات المسلحة (ACLED)، سُجِّل ما لا يقل عن 1,003 هجمات بالمسيّرات بين 15 أبريل 2023 و 23 يناير 2026. وهذا الرقم لا يشمل بالضرورة كل هجومات وقع فعليًا، بل يعكس الأحداث التي أمكن رصدها وتوثيقها وفق منهجية المشروع.

ألف هجوم موثّق خلال أقل من ثلاث سنوات، في بلد يعيش حربًا مدمرة، ليست رقمًا في سجل العمليات العسكرية وحسب، بل إنها علامة على انتقال القتال إلى مرحلة تتسع فيها دائرة الخطر، وتراجع فيها قدرة المدنيين على

العثور على مكان آمن.

من جبهات القتال إلى عمق المدن وفي هذا السياق، تكشف خريطة الهجمات أن المسيّرات لم تبق محصورة في مسرح عمليات واحد، إذ سجلت ولاية الخرطوم 440 هجومًا، وشمال كردفان 122، وشمال دارفور 118، وغرب كردفان 90، وجنوب كردفان 65، وجنوب دارفور 52، فيما توزعت 116 هجومًا على ولايات أخرى، وفق بيانات ACLED التي حللتها الجزيرة.

تضع هذه الأرقام الخرطوم في مقدمة المناطق المسجلة، لكنها تكشف أيضًا عن اتساع رقعة الاستخدام في كردفان ودارفور، حيث تتداخل المعارك مع تجمعات السكان وممرات النزوح والأسواق ومرافق الخدمات.

والأخطر أن امتداد الهجمات لا يعني بالضرورة أن كل هدف مدني كان مقصودًا بذاته؛ إذ إن إثبات القصد يحتاج إلى أدلة تخص كل حادثة، لكن تكرار سقوط الضحايا في الأسواق والمنشآت الصحية والمناطق السكنية، وتكرار ضرب البنية التحتية، يفرض سؤالًا لا يمكن التغاضي عنه: كيف تُنفَّذ هذه الهجمات، وما الاحتياطات التي يتخذها الطرفان لتجنب قتل المدنيين؟

وعليه، فإن وجود هدف عسكري في منطقة ما لا يحوّل السكان المحيطين به إلى أهداف مشروعة، ولا يمنح أي طرف تفويضًا مفتوحًا بإطلاق النار من السماء، وفق القانون الإنساني الدولي وما يتحتم عليه من أعراف. الأرقام في تصاعد.. وارتفاع الضحايا بنحو 600%.

لم يكن تصاعد استخدام المسيّرات متدرجًا فحسب، بل حمل قفزات واضحة، وتشير بيانات ACLED التي أوردتها صحيفة «إل بايس» الإسبانية في يناير 2026 إلى تسجيل 152 هجومًا في 2023، و 277 في 2024، ثم 472 في 2025، وبذلك ارتفع عدد الهجمات المسجلة في 2025 بنحو 70% مقارنة بالعام السابق، فيما ارتفعت الوفيات المرتبطة بالمسيّرات خلال العام نفسه بنحو 600% وفق المصدر ذاته. لكن أكثر الأرقام قسوة جاء من الأمم المتحدة،

أصبح صوت المسيّرة إنذارًا بالموت قد يسمعه المواطن في سوقه، أو داخل مستشفى، أو قرب محطة كهرباء».

ألف هجوم موثق خلال أقل من ثلاث سنوات، ليست رقماً في سجل العمليات العسكرية وحسب، بل علامة على انتقال القتال إلى مرحلة تتسع فيها دائرة الخطر.

بخط كهرباء رئيسي، وأصيب أفراد من الدفاع المدني كانوا في موقع الحادث، وفق «سودان تريبيون».

قد يبدو المحول الكهربائي هدفاً بعيداً عن حياة الناس، لكن انقطاع الكهرباء يوقف مضخات المياه، ويعطل أجهزة المستشفيات، ويهدد حفظ الأدوية والأغذية، ويجعل الحياة اليومية أكثر قسوة في بلد أنهكته الحرب والنزوح والفقر، وعندما تتعطل محطة تخدم ولايات عدة، لا تقف الأضرار عند حدود المنشأة التي أصابها الهجوم، وفي معظم الحالات، فإن هذه المحطات لا تنفصل عن جغرافيا المدن والقرى، ما يعرض المدنيين للموت أيضاً.

وفي مايو 2025، وصلت الهجمات إلى بورتسودان، حيث طالت المطار ومستودعات الوقود ومنشآت حيوية أخرى، وأفادت رويترز باندلاع حرائق في مستودعات الوقود وتضرر البوابة الرئيسية للمساعدات الإنسانية، في تصعيد نقل الخطر إلى مدينة كانت مركزاً مهماً للعمليات الإنسانية والإدارية. وعليه، فإن ضرب منشآت الطاقة والوقود والنقل لا يدمر الأصول المادية وحدها؛ بل يضرب قدرة السكان على الحصول على الماء والغذاء والعلاج، ويزيد صعوبة وصول المساعدات إلى من يحتاجون إليها، وتصبح الكلفة أكبر عندما تتزامن هذه الضربات مع انهيار الخدمات أصلاً.

المستشفيات والأسواق.. إذ تتضاعف المأساة

في مناطق النزاع، لا تعني إصابة مستشفى تدمير مبنى فحسب؛ فقد تعني إغلاق قسم الطوارئ، وتعذر إجراء عملية جراحية، وترك جرحى بلا علاج، وفي مارس 2026، قُتل أكثر من 60 مدنياً في ضربة استهدفت مستشفى الضعين التعليمي بشرق دارفور، وفق ما أورده مكتب الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، كما سقط مدنيون في هجوم على سوق بمدينة الدلنج في جنوب كردفان خلال يناير

ففي 11 مايو 2026، أعلن مفوض الأمم المتحدة السامي لحقوق الإنسان فولكر تورك أن ضربات المسيّرات قتلت ما لا يقل عن 880 مدنياً بين يناير وأبريل 2026، وأنها تسببت في أكثر من 80% من الوفيات المدنية المرتبطة بالنزاع التي وثقها مكتبه خلال تلك الفترة.

إزاء ذلك، وفي 15 يونيو، ارتفع الرقم المعلن إلى أكثر من ألف مدني قتلوا بالمسيّرات بين يناير ومايو 2026، وفق المفوض السامي نفسه، وأشارت الأمم المتحدة إلى أن مكتبها وثق خلال الأشهر الخمسة ذاتها ما لا يقل عن 16 ضربة استهدفت مرافق صحية، و33 ضربة استهدفت أسواقاً.

تجدر الإشارة إلى أن هذه الأرقام تخص فترة خمسة أشهر من عام واحد، ولا تمثل الحصيلة الكلية منذ اندلاع الحرب، ولا يجوز جمعها ألياً مع أرقام ACLED أو غيرها؛ لاختلاف الفترات الزمنية ومناهج التوثيق واحتمال اختلاف تعريف الحوادث والضحايا.

وعليه، فإن وراء كل رقم أسرة فقدت عائلها، وطفل فقد أحد والديه، ومصاب قد لا يجد مستشفى يعمل، ونازح ظن أنه ابتعد عن الخطر قبل أن تصل إليه ضربة جديدة، إذ أضحت المسيّرات سبباً رئيسياً للوفيات المدنية، ولم يعد ممكناً التعامل معها باعتبارها تفصيلاً تقنياً أو إستراتيجياً في حرب طويلة وبلا نهاية.

استهداف محطات الكهرباء

وفي ذات الوقت، لا تنتهي آثار المسيّرات عند لحظة الانفجار، ففي 13 يناير 2025، تعرضت محطة كهرباء سد مروي لهجوم نسب إلى قوات الدعم السريع، وأدى إلى أضرار في أحد المحولات وانقطاعات للكهرباء امتدت إلى مناطق متعددة، وأشارت تقارير إلى أن المحطة توفر نحو 40% من الكهرباء المنتجة في السودان.

وفي 18 يناير، استهدفت مسيّرات محطة الشوك للتحويل الكهربائي بولاية القضارف، ما تسبب في انقطاعات واسعة، وألحق أضراراً

لا يمنع وجود هدف عسكري في منطقة ما أي طرف تفويضاً مفتوحاً بإطلاق النار من السماء.

وراء كل رقم أسرة فقدت عائلها، وطفل فقد أحد والديه، ومصاب قد لا يجد مستشفى يعمل».



حادثة تظل بحاجة إلى فحص الأدلة المتاحة بصورة مستقلة. وتزداد فداحة هذه الوقائع لأن الضحايا لا يقتصرون على من كانوا في الموقع لحظة الضربة الأولى؛ إذ إن الهجوم الذي يطال مكاناً يتجمع فيه الناس قد يقتل المصابين والمسعفين ومن يهرعون لإنقاذهم، وعندما يتعرض مرفق صحي لهجوم، قد تمتد الخسائر إلى أشخاص لم يصلوا إليه بعد، لأنهم فقدوا المكان الذي كان يفترض أن ينقذ حياتهم.

من العام نفسه. وفي ديسمبر 2025، شهدت كلوقي بجنوب كردفان واحدة من أكثر الحوادث دموية؛ إذ أوردت الجزيرة، استناداً إلى بيانات ومعلومات من جهات محلية، أن هجمات متتالية بالمسيّرات استهدفت روضة أطفال ومستشفى، وأسفرت عن مقتل أكثر من 114 شخصاً، ونُسب الهجوم إلى قوات الدعم السريع وحليفاتها الحركة الشعبية لتحرير السودان. شمال بقيادة عبد العزيز الحلو، لكن نسبة المسؤولية في كل

قد يوقف انقطاع الكهرباء مضخات المياه، ويعطل أجهزة المستشفيات، ويهدد حفظ الأدوية والأغذية، ويجعل الحياة اليومية أكثر قسوة في بلد أنهكته الحرب والنزوح والفقر».

«عندما تتعرض الأسواق والمرافق الصحية ومصادر المياه والطاقة للهجمات، تنقلص المساحات التي يستطيع المدنيون أن يعيشوا فيها بأمان».

هل أصبحت القوات العسكرية بمنأى عن الخطر؟

لا. فقد استهدفت المسيرات مواقع عسكرية ومطارات وقواعد ومنشآت مرتبطة بالعمليات القتالية، واعترضت الدفاعات الجوية بعضها وأسقطت أخرى، وسُجلت هجمات على مواقع عسكرية في شندي ومناطق أخرى خلال 2024، كما طالت هجمات لاحقة منشآت ذات قيمة عسكرية ولوجستية، وتوضح هذه الوقائع أن الطرفين يستخدمان المسيرات ضمن عملياتهما، وإن اختلفت قدراتهما وأنماط استخدامهما من فترة إلى أخرى.

وقد تكون مهاجمة هدف عسكري مشروعاً من حيث المبدأ، لكن ذلك لا يلغي واجب التمييز بين المقاتلين والمدنيين، ولا الالتزام بالتناسب واتخاذ الاحتياطات الممكنة لحماية السكان، ولا يكفي إعلان أن الهدف عسكري لإثبات قانونية الضربة، كما لا يكفي سقوط مدنيين وحده، من دون فحص الوقائع، للحكم القانوني النهائي على كل حادثة.

غير أن اتساع نطاق الهجمات وتكرار إصابة الأعيان المدنية يجعلان التحقيق المستقل ضرورة لا ترفاً، ويجب ألا تتوقف الأسئلة عند الجهة التي أطلقت المسيرة؛ بل ينبغي أن تشمل طبيعة الهدف، والأدلة التي استند إليها المهاجم، والإنذارات التي سبقت الضربة، وحجم الضرر المتوقع، وما إذا اتخذت تدابير لحماية المدنيين.

من يحمي السودانيون من حرب السماء؟

إلى ذلك، وفي 9 أكتوبر 2026، أفاد مرصد الشبكة المتحدة للإنسانية بمقتل 30 مدنياً في هجوم بالمسيرات على منطقة أبو شندي بمحلية ود الماحي في إقليم النيل الأزرق، حيث لجأت مجموعات من النازحين، ونسب المرصد الهجوم إلى قوات الدعم السريع، بالرغم من أن هذه الحويلة التي أوردها مصدر رصد إنساني، وينبغي التعامل معها باعتبارها

تقريراً يحتاج إلى corroboration مستقل قبل اعتمادها حصيلة نهائية مؤكدة.

في المحصلة، إن انتقال الخطر إلى مناطق النزوح يكشف مأزقاً بالغ القسوة: يفرّ الناس من القصف، فيجدون أنفسهم أمام سلاح يستطيع الوصول إلى مناطق بعيدة عن الجبهات التقليدية؛ وفي الوقت الذي تتعرض فيه الأسواق والمرافق الصحية ومصادر المياه والطاقة للهجمات، تنقلص المساحات التي يستطيع المدنيون أن يعيشوا فيها بأمان. إزاء ذلك، لا يمكن فصل هذه الحرب الجوية عن مسؤولية أطراف النزاع عن حماية السكان، ولا عن مسؤولية الدول التي قد تسهم في نقل الأسلحة أو توفيرها، وقد دعا مفوض الأمم المتحدة السامي لحقوق الإنسان إلى اتخاذ تدابير فعالة لمنع وصول الأسلحة، بما فيها المسيرات المتطورة، إلى الأطراف المتحاربة، محذراً من أن استمرار الهجمات مع الإفلات من العقاب يهدد بتطبيع العنف ضد المدنيين.

وعليه، فإن السودان لا يحتاج إلى مزيد من الأرقام التي تضاف إلى قوائم القتلى ثم تطوى صفحاتها، يحتاج إلى وقف استهداف المدنيين، وحماية المرافق التي تقوم عليها حياتهم، وتحقيق مستقل في الهجمات، ومحاسبة المسؤولين عن الانتهاكات التي تثبتتها الأدلة. إذ إن المسيرة التي تدمر محطة كهرباء لا تترك خلفها ظلاماً فقط؛ والتي تصيب مستشفى لا تقتل من بداخله وحدهم؛ والتي تضرب سوقاً لا تحصد أرواح المتسوقين فحسب، إنها تنتزع من الناس ما تبقى لهم من أسباب الحياة، وفي حرب أرهقت السودان، باتت حماية المدنيين من السماء واجباً لا يحتمل التأجيل.

المصادر والمراجع

1. الجزيرة، 3 فبراير 2026: «حرب المسيرات في السودان: رصد ألف هجوم جوي منذ أبريل 2023» (<https://www.aljazeera.com/drone-warfare-in-/3/2/2026/news/longform-aerial-attacks-since-april-1000-sudan-tracking>)

«إن اتساع نطاق الهجمات وتكرار إصابة الأعيان المدنية يجعلان التحقيق المستقل ضرورة لا ترفاً».

«يفرّ الناس من القصف، فيجدون أنفسهم أمام سلاح يستطيع الوصول إلى مناطق بعيدة عن الجبهات التقليدية».

مصدر تفاصيل الأضرار والانقطاعات الكهربائية.

7. سودان تريبيون، 18 يناير 2025: «هجمات بالمسيّرات على محطة كهرباء رئيسية في شرق السودان» (<https://sudantribune.com/>) (utm_source=chatgpt.com?296147/article).

مصدر تفاصيل الهجوم على محطة الشوك والأضرار التي لحقت بخطوط الكهرباء.

8. رويترز، 6 مايو 2025، عبر Investing.com: «هجمات بالمسيّرات على بورتسودان تهدد وصول المساعدات» (<https://www.investing.com/news/world-news/explosions-heard-in-sudanese-city-of-port-sudan-witness-says>) (utm_source=chatgpt.com?4023523).

مصدر أضرار مستودعات الوقود والميناء والمنشآت الحيوية.

9. وكالة أسوشيتد برس، 15 يونيو 2026: «مقتل أكثر من ألف مدني في ضربات المسيّرات خلال الأشهر الخمسة الأولى من 2026» (<https://www.88f883750a3846c237fa3a/apnews.com/article>) (62add55d7f?utm_source=chatgpt.com).

مصدر صحفي مستقل لنقل حصيلة الأمم المتحدة وبيانات تصاعد استخدام المسيّرات.

10. مرصد الشبكة المتحدة للإنسانية، 9 أكتوبر 2026: «هجوم بالمسيّرات في النيل الأزرق يقتل 30 مدنيًا» (https://unho.org/sudan-drone-civilians-amid--30-strike-in-blue-nile-kills-repeated-drone-attacks/?utm_source=chatgpt.com).

مصدر التقرير المتعلق بمنطقة أبو شندي؛ يحتاج إلى تحقق مستقل إضافي.

ملاحظة توثيقية:

الأرقام الواردة تخص فترات ومصادر مختلفة، ولا يجوز جمعها للحصول على حصيلة إجمالية واحدة، كما أن نسبة الهجمات إلى الأطراف المتحاربة ليست مؤكدة بالدرجة نفسها في كل حادثة؛ لذلك جرى إسناد الادعاءات إلى مصادرها، مع التمييز بين البيانات الأممية، والرصد المستقل، والتقارير الصحفية.

utm_source=chatgpt.com?2023). مصدر بيانات عدد الهجمات وتوزيعها الجغرافي وحادثة كلوكي.

2. مكتب المفوض السامي للأمم المتحدة لحقوق الإنسان، 11 مايو 2026: «تحذير من اتساع الحرب في السودان وتصاعد استخدام المسيّرات» (<https://sudan.un.org/en>) (315325-BCrk-issues-high-alert-widening-sudan-%t%C3-conflict-amid-increased-use-drones?utm_source=chatgpt.com).

مصدر حصيلة 880 مدنيًا خلال يناير-أبريل 2026، والهجمات على الأسواق والمرافق الصحية.

3. مكتب الأمم المتحدة في جنيف، 15 يونيو 2026: «إحاطة المفوض السامي بشأن حقوق الإنسان في السودان» (<https://www.3157/unognewsroom.org/teleprompter/en-june-15-human-rights-in-sudan-62-hrc>) (utm_source=chatgpt.com?9413/2026).

مصدر حصيلة أكثر من ألف مدني قُتلوا بالمسيّرات بين يناير ومايو 2026، وبيانات المرافق الصحية والأسواق.

4. صحيفة إل بايس الإسبانية، 28 يناير 2026: «المعركة على السماء تعيد تشكيل الحرب في السودان» (https://elpais.com/la-batalla-por-los-cielos-redefine-la-guerra-en-sudan.html?utm_source=chatgpt.com).

مصدر المقارنة السنوية لهجمات المسيّرات والوفيات المرتبطة بها.

5. رويترز، 18 يناير 2025: «انقطاعات واسعة للكهرباء في السودان بعد هجمات بالمسيّرات» (https://www.reuters.com/world/africa/blackouts-hit-wide-swathes-army-controlled-utm_?/18-01-2025-sudan-after-drone-attacks) (source=chatgpt.com).

مصدر أضرار البنية التحتية الكهربائية وتدابيراتها على السكان والخدمات.

6. سودان تريبيون، 13 يناير 2025: «هجوم بالمسيّرات على محطة كهرباء سد مروي» (<https://sudantribune.com/>) (utm_source=chatgpt.com?295881/article).

«في حرب أرهقت السودان، باتت حماية المدنيين من السماء واجبًا لا يحتمل التأجيل».

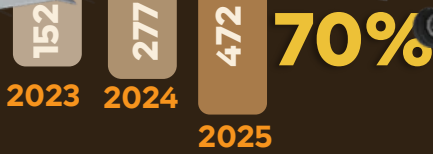
من يحمي السودانيين من حزب السماء؟

المسيّرات تطارد ما تبقى من الحياة

1,003

هجمات بالمسيّرات

رُصدت في السودان بين 15 أبريل 2023 و23 يناير 2026، وفق بيانات مشروع رصد مواقع وأحداث النزاعات المسلحة.



زيادة في عدد الهجمات المسجلة عام 2025 مقارنة بعام 2024

مدني

10000+

قُتلوا بضربات المسيّرات بين يناير ومايو 2026، وفق الأمم المتحدة

33 ضربة استهدفت أسواقًا
خلال الفترة نفسها

16 ضربة استهدفت
مرافق صحية

ما المطلوب؟

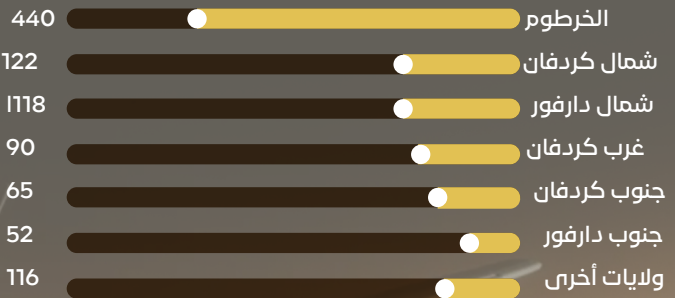
1 وقف استهداف المدنيين

2 حماية المرافق الحيوية

3 إجراء تحقيقات مستقلة

4 محاسبة المسؤولين عن الانتهاكات

أين تتركز الهجمات؟



ماذا تدمّر المسيّرات؟

محطات الكهرباء: انقطاع التيار وتعطل المياه والخدمات الصحية

المستشفيات: سقوط الضحايا وتعطل العلاج وحرمان الجرحى من الرعاية

الأسواق: قتل المدنيين وتدمير مصادر الرزق

مناطق النزوح: ملاحقة الفارين من القتال وتهديد ما تبقى من المساحات الآمنة

مكان آمنًا ما دامت
المسيّرات تطارد
الفارين من الحرب

المصدر: مشروع رصد مواقع وأحداث النزاعات المسلحة، والأمم المتحدة



غلاء يتصاعد.. و«العيش بالقبضة»

ملخص

تواصل أسعار الحبوب الغذائية في السودان ارتفاعها الحاد بفعل الحرب وتراجع الإنتاج الزراعي واضطراب الأمطار وانخفاض قيمة الجنيه، إذ ارتفع سعر ربع الدقيق من 40 ألفاً إلى 56 ألف جنيه خلال أقل من أسبوع، وتجاوز أردب الذرة بالقضارف مليوناً و250 ألف جنيه.

تنعكس موجة الغلاء على حياة المواطنين، إذ تراجعت مبيعات الكسرة بأكثر من النصف، وارتفع سعر القطعة من 800 إلى 1500 جنيه، بينما باتت أسر عاجزة عن توفير احتياجاتها الأساسية في ظل ارتفاع تكاليف الوقود والخبز وتراجع الدخل.

في محلية همشكوريب بولاية كسلا، خلت الأسواق تماماً من الذرة، وفق غرفة طوارئ شباب همشكوريب، التي عزت الأزمة إلى القيود المفروضة على حركة التجارة ومحدودية تصاديق نقل المحاصيل، وطالبت بتدخل عاجل لتوفير الغذاء وتسهيل الإمدادات.

سجلت أسعار الذرة والدخن مستويات قياسية في عدد من الولايات، وارتفع سعر جوال الذرة في غرب كردفان من 400 ألف إلى 1,2 مليون جنيه، فيما قالت منظمة الأغذية والزراعة إن أسعار الذرة والدخن بلغت سبعة أضعاف مستويات ما قبل الحرب، وسط تحذيرات من تفاقم انعدام الأمن الغذائي واقترباب شبح المجاعة.

تواصل أسعار الغلال ارتفاعاً متزايداً، مقروناً مع تحطيم قيمة الجنيه السوداني، وضعف القدرة الشرائية لدى قطاعات واسعة من المواطنين والأسر السودانية».

مغيرة حربية



إنساني مؤلم، حيث توافد مواطنون من القرى الريفية البعيدة إلى مدينة همشكوريب، التي تعد مركز التسوق الرئيسي لهم، حاملين أمل الحصول على جوانات ذرة لإنقاذ أسرهم، ليصطدموا بأسواق خاوية على عروشها. «جاءوا لشراء الذرة والعودة بها، لكنهم باتوا عاجزين عن توفير الطعام لأطفالهم»، يقول البيان.

وتحمل الغرفة القيود المفروضة على حركة التجارة مسؤولية تفاقم الأزمة. فبحسب البيان، فإن نظام تصديق المرور المفروض على التجار لنقل الذرة من المدن والولايات الأخرى، ومحدودية التصديق الممنوحة، أدى إلى شلل شبه تام في سلاسل الإمداد. وتتساءل الغرفة: «كيف يُترك المواطن بلا غذاء، بينما تتعطل حركة الإمداد بسبب محدودية تصديق المرور؟»

ووجهت غرفة الطوارئ نداء عاجلاً إلى لجنة أمن ولاية كسلا والسلطات المختصة، طالبت فيه بثلاثة إجراءات فورية: إصدار تصديق مرور استثنائية وكافية وفورية للتجار الراغبين في جلب الذرة، وتدخل عاجلاً لتوفير كميات من الذرة والمواد الغذائية الأساسية بالتنسيق مع الجهات الإنسانية، وإجراء تقييم عاجل وشامل للاحتياجات الغذائية لسكان المدينة والقرى الطرفية.

وتعد محلية همشكوريب من أكثر المناطق هشاشة غذائياً في شرق السودان، حيث يعتمد سكانها بشكل شبه كامل على الذرة، في وقت تتعطل فيه سلاسل الإمداد في أنحاء البلاد جراء تداعيات الحرب المستمرة منذ أبريل 2023، وارتفاع تكاليف النقل وانعدام السيولة.

«الطريقة» بألف ونصف

تخبر الحاجة مريم، وتعمل بائعة للكسرة بشارع الوادي في أمدرمان، إن مبيعها من الكسرة الجاهزة تقلص لأكثر من النصف إثر إجماع كثيرين من زبائنهم عن الشراء جراء ارتفاع الأسعار. «أنا لي 15 سنة ببيع الكسرة في السوق، عمري ما شفت الغلا ده»، تقول مريم في حديث لـ «أفق جديد». وتضيف أن الغلاء لا يقتصر

في خضم المعاناة الفادحة وصعوبة العيش، جراء الحرب وتداعياتها المدمرة، ومع التذبذب الشديد في معدلات أمطار خريف هذا العام وانحباس المطر في مناطق الإنتاج الزراعي التقليدي وحصاد متدن في كثير من المشروعات الزراعية المروية، مما يُنذر بشبح مجاعة، تواصل أسعار الغلال ارتفاعاً متزايداً، مقروناً مع تحطيم قيمة الجنيه السوداني، وضعف القدرة الشرائية لدى قطاعات واسعة من المواطنين والأسر السودانية الذين يعانون انخفاضاً مريعاً في الدخل والبطالة واتساع العوز؛ فخلال أقل من أسبوع، تغيرت أسعار ربع الدقيق المطحون، ويعادل حوالي 7 كيلو، من 40 ألف جنيه إلى 48 ليصل إلى 56 للذرة والقمح. والخميس، 15 أكتوبر 2026، أغلق سوق المحاصيل بولاية القضارف التعاملات على تجاوز أربب الذرة «الفتريته» حاجز المليون و250 ألفاً. وأصدرت حكومة ولاية الجزيرة، في ظل الارتفاع الكبير لأسعار الحبوب الغذائية في البلاد وانطلاق موسم حصاد الذرة في الجزيرة، قرارات بحظر خروج القمح من الولاية، ونص القرار على وضع ضوابط لحركة الذرة بأنواعها المختلفة.

همشكوريب.. انعدام الذرة

«لم يعد الأمر مجرد ارتفاع في الأسعار أو شح في السلع، بل تحول إلى انعدام كامل للغذاء». بهذه العبارة القاسية لخصت غرفة طوارئ شباب همشكوريب المشهد الحالي في المحلية الحدودية التابعة لولاية كسلا، شرقي السودان. ففي بيان تحذيري صادر الاثنين 13 أكتوبر، أكدت الغرفة أن أسواق المحلية خلت تماماً من محصول الذرة، الغذاء الأساسي الذي تعتمد عليه آلاف الأسر في المدينة والقرى التابعة لها، وذلك بناء على تأكيد رسمي من مكتب الأمن الغذائي بهمشكوريب التابع لوزارة الزراعة. ويكشف البيان عن جانب

«لم يعد الأمر مجرد ارتفاع في الأسعار أو شح في السلع، بل تحول إلى انعدام كامل للغذاء».

«جاءوا لشراء الذرة والعودة بها، لكنهم باتوا عاجزين عن توفير الطعام لأطفالهم».



الذرة من 400 ألف جنيه لـ 1200000 جنيهها (مليار و200 ألف)، وسجل جوال الدخن في حمرة الشيخ 750 ألفاً. وقالت منظمة الفاو إن أسعار الذرة والدخن في السودان بلغت 7 أضعاف قبل اندلاع الحرب.

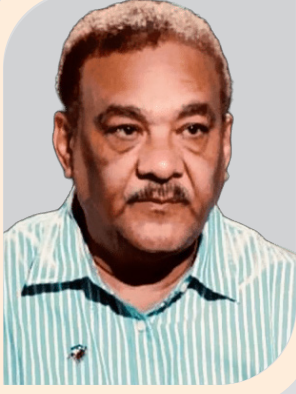
ويذهب منتصر عامر، وهو صاحب طاحونة بمنطقة كرري في أمدرمان، إلى أن تهاوي الجنيه أمام العملات الأخرى وتأخر عمليات الحصاد في مناطق الإنتاج وارتفاع تكلفة الترحيل، علاوة على قرارات منع نقل المحاصيل بين الولايات، يتسبب مباشرة في ارتفاع أسعار المحاصيل لمستويات قياسية. ويضيف في حديث لـ «أفق جديد»: «في الواقع نحن نخسر، رأسمالنا يتقلص، فما كان يشتري أردباً أصبح يشتري جوالاً واحداً فقط». ويشكو منتصر من برمجة قاسية للكهرباء، حيث تتوقف «الطاحونة» لأكثر من 12 ساعة خلال اليوم ومن ارتفاع سعر قطع الغيار، ويقول: «ليست الكسرة» ترفاً يلجأ لها الناس إبان ارتفاع الخبز، ولكنها الطعام الرئيسي لأغلب السودانيين الذين أصبحوا عاجزين عن توفيرها، ولولا أن يتدارك الله هذه البلاد فإن المجاعة مقبلة ولا شك.

على ارتفاع أسعار الذرة فقط، بل يتعداه للوقود، قائلة: «الحطب غال جداً والغاز معدوم لأكثر من شهر والكهرباء فيها برمجة قاسية شديد والطريقة الكُنا نبيعها بي 800 جنيهه بقت بألف ونص». وتقول مريم، علاوة على أسرتها التي تتكون من 7 أفراد، 3 أيتام آخرين في سن المدرسة، مما يشكل ضغطاً متزايداً، سيما أن العام الدراسي على الأبواب: «المدارس حفتت والبرغيف أصبح قطعتين بألف جنيه، لو ما عُست ما بناكل، ومرات بنرجع الكسرة البائرة نأكلها نحن في البيت»، تقول.

مستويات قياسية

وسجلت أسواق المحاصيل ارتفاعاً للأسعار بلغت مستويات قياسية، وبلغ سعر جوال الذرة في «سوق المعيلق» بولاية الجزيرة نحو 600000 ألف جنيه، وتجاوز سعر «كيله العيش» حاجز 100000 جنيه، في ولاية النيل الأبيض، بينما سجلت غرب كردفان كارثة معيشية بحسب غرفة طوارئ دار حمر (11 أكتوبر)، حيث ارتفع جوال

فخلال أقل من أسبوع، تغيرت أسعار ربع الدقيق المطحون، ويعادل حوالي 7 كيلو، من 40 ألف جنيه إلى 48 ليصل إلى 56 ألفاً للذرة والقمح.



من التفكير إلى السؤال إلى أزمة الشرعية في السودان

وجدي كامل

ملخص

يرى الكاتب أن بعض الأمثال الشعبية السودانية تنظر إلى التفكير بوصفه مصدرًا للقلق والتعب، رغم أن القرآن دعا إلى التعقل والتدبر والنظر، وأن التفكير النقدي وسيلة لفهم الواقع ومساءلة المسلمات.

يربط المقال بين التفكير النقدي وأزمة الشرعية في السودان، مستعيدًا حركة 1924 وثورة 2019 وانقلاب 2021 والحرب التي اندلعت في 2023، بوصفها محطات عاد فيها السؤال عن الجهة التي تملك حق تمثيل البلاد والحكم باسم شعبها.

يستعرض أفكار فلاسفة مثل سقراط وأفلاطون وديكارت وكانط ونيتشه، موضحًا أن التفكير قد يقود إلى اكتشاف الحقيقة والتحرر من الوصاية، لكنه قد يهدم أيضًا تصورات راسخة عن الذات والمجتمع.

يخلص الكاتب إلى أن أزمة السودان لا تكمن في كثرة التفكير، بل في غياب المؤسسات القادرة على تحويل الأسئلة إلى حوار سياسي وفعل مدني، محذرًا من أن إغلاق أبواب التفكير والمساءلة قد يدفع الخلافات إلى العنف والحرب.

هنالك مقولات شعبية سالبة عن التفكير، ومنها أن التفكير الكثير يجن صاحبه. «وفكر كثير - تتعب». «الهم ما بجيب غير الغم»، وأن الهموم إذا ما كثرت وتوالت، فعلى الإنسان أن ينام.

وهناك عدد كبير من الأمثال والتعبيرات الشعبية التي تنظر إلى التفكير والهم والانشغال العقلي بوصفها أشياء قد تضر بالإنسان، أو لا تغير شيئاً، أو أن الأفضل التخلص منها. وبعضها أكثر سلبية من مجرد الدعوة إلى الراحة. كل هذه المقولات والأمثال تعبر عن موقف ثقافي سلبي من التفكير. وكل ذلك لا يحدث عن أن التفكير علامة من علامات الوعي. إنها أنماط متكررة تمنع من التفكير وتقول لك: «خليها على الله».

فهل نهى الله عن التفكير، أم أننا ورثنا ثقافة تخاف أحياناً من الأسئلة التي يمكن أن يقود إليها التفكير؟

الله لم ينه عن التفكير في القرآن، بل على العكس، دعا إلى التعقل والتدبر والنظر. وفي القرآن تتكرر عبارات مثل: (أَفَلَا تَعْقِلُونَ)، (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ)، (لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)، (وَقُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

لكن هناك فرق مهم: فالقرآن لا يجعل كل تفكير محموداً بالضرورة. فهو يذم التفكير الذي يقوم على الظن والهوى والتقليد الأعمى، أو الذي يرفض الحق بعد ظهوره. وفي المقابل، يجعل التعقل والتدبر والنظر وسائل للوصول إلى الفهم والهداية.

التفكير، ووفقاً لتفسير القواميس والمراجع، هو عملية لاستيعاب الأشياء والظواهر بنحو يساعد صاحبه على تحقيق مستوى من الإدراك أعلى عن العالم.

وإذا وضعنا المقولات الشعبية جانباً، سنجد أن تاريخ الفلسفة يكاد يكون تاريخاً طويلاً من الدفاع عن التفكير، والشك فيه في الوقت نفسه. فالفلاسفة لم يتفقوا على أن التفكير يقود بالضرورة إلى الحقيقة أو السعادة؛ بعضهم رأى فيه طريق الخلاص، وبعضهم رأى فيه مصدراً للقلق، وبعضهم حاول أن يميز بين التفكير الذي يكشف والتفكير الذي يستهلك صاحبه.

وإذا ما أخذنا بعض الفلاسفة كمثال للعلاقة مع التفكير، نجد أن سقراط كان يبحث عليه، ويقف بالتالي في الطرف المقابل للمثل الشعبي الذي يقول إن كثرة التفكير تجنن صاحبه. ففكرة سقراط الأساسية هي أن الحياة غير المفحوصة،

أو التي لا يفكر الإنسان فيها، لا تستحق العيش، بالرغم من الثمن الذي دفعه نتيجة ذلك.

أما أفلاطون، ففي كهفه الشهير يعيش الناس وهم يعتقدون أن الظلال التي يرونها على جدار الكهف هي الحقيقة، بينما الحقيقة في التفكير، والتفكير الفلسفي الذي يقود إلى الخروج من الكهف.

وإذا نظرنا إلى ديكارت، فسوف نتعرف على أن التفكير بداية خيط اليقين الذي قاده ويقود إلى مقولته الخالدة التي تقول: «أنا أفكر - إذن أنا موجود». وتلك خطوة من مسير كانط الذي يفسر التفكير بأنه التحرر من الوصاية.

ولكن، ومن بين جميع من سبقوه من الفلاسفة، جاء نيتشه ليكشف العلاقة بين التفكير والصدمة، حين يمكن للتفكير أن يهدم ما كنت تظنه أنك أنت. هنا تقترن أهمية التفكير بال لحظة الخاصة بنا كسودانيين، عندما نجد أننا أمام اختبار أن نكتشف بأننا لسنا نحن الذين كنا قبل الحرب.

وقبل التعمق أكثر، من الضروري التمييز بين تفكير وتفكير. فهناك تفكير يدور حول المشكلة ويعيد إنتاجها في الذهن، وهناك تفكير يفحصها ويسأل عن أسبابها وشروطها ونتائجها، ويحاول أن يصل إلى موقف منها. وهذا هو ما يمكن تسميته بالتفكير النقدي؛ فهو لا يلغي الشك والقلق، لكنه يحولهما من دوران في المكان إلى محاولة لفهم الظاهرة وتفكيكها.

ومن وظائف التفكير النقدي إنتاج الأسئلة، وإعادة التساؤل حول أوضاع الأشياء، ومنها الشرعية. والتفكير في الأخيرة غالباً ما شكل ميدان الصراع التاريخي مع السلطة.

فربما لا تخشى السلطة الإنسان الذي يفكر كثيراً بقدر ما تخشى الإنسان الذي يفكر ثم يتصرف بناءً على ما وصل إليه.

هذا حدث في التاريخ السوداني المعاصر عندما بدأت إعادة النظر في من يملك حق تمثيل السودان والتحدث باسمه. كانت تلك واحدة من الأسئلة التي ظهرت داخل الصراع السياسي في تلك المرحلة، عندما اصطدمت حركة 24 بالسلطة التقليدية ومن ثم الاستعمارية.

ففي تلك اللحظة بدأت تظهر، داخل الحركة الوطنية الجديدة، مساءلة مختلفة لمصادر التمثيل السياسي في السودان: من يملك حق الحديث باسم البلاد، ومن أين تأتي شرعية هذا الحق؟ وكان ذلك يعني، ضمناً، إعادة النظر في الدور الذي مارسه بعض البيوتات والزعامات



فمنذ بدايات القرن العشرين، مروراً بحركة 1924 والاستقلال والانقلابات المتعاقبة، وصولاً إلى ثورة 2019 وانقلاب 2021 ثم الحرب التي اندلعت في 2023، لطالما عاد سؤال الشرعية بأسماء وصيغ مختلفة، بينما ظلت آليات حسمه تتعثر أو تنتقل من السياسة إلى القوة. ومن هنا يمكن فهم التفكير النقدي بوصفه قدرة على إنتاج الأسئلة وإعادة النظر في ما يبدو ثابتاً وطبيعياً، وفي مقدمة ذلك شرعية السلطة ومصادرها. ولعل المشكلة لا تكمن في أن السودانيين لم يفكروا، وإنما في أن أسئلة كثيرة لم تجد مؤسسات قادرة على استقبالها وتحويلها إلى نقاش سياسي وفعل مدني. غير أن الأشد أهمية هو الدرس الذي نكاد نكون قد تعلمناه: حين تُخلق أبواب السؤال، فقد لا يختفي السؤال بالضرورة؛ بل يبقى كامناً حتى يجد طريقه إلى الصراع. وربما لهذا لا يكون الخطر الأكبر في أن يفكر الإنسان كثيراً، وإنما في أن يتوقف مجتمع بأكمله عن التفكير في الأسئلة التي تحدد مصيره.

نختم بأن المشكلة لم تكن يوماً في أن السودانيين يفكرون كثيراً، وإنما في أننا لم نمنح التفكير النقدي المجال الكافي لكي يتحول إلى معرفة، والمعرفة إلى حوار، والحوار إلى سياسة، والسياسة إلى مؤسسات قادرة على منع الخلاف من أن يتحول إلى حرب. فليس التفكير هو الذي يجنن صاحبه؛ ربما الذي يجنن المجتمعات هو أن تظل الأسئلة الكبرى بلا إجابات سياسية، حتى لا يعود أمامها في النهاية سوى العنف.

التقليدية بوصفها قنوات للتمثيل والوساطة، خاصة بعد ما عُرف بسفر الولاء عام 1919. لم يكن السؤال في 1924: من يحكم السودان فقط، بل من يملك حق تمثيل السودان والتحدث باسمه؟

هنا تمت إزالة الغطاء والكشف عن التوتر بين المؤسسات السياسية والاجتماعية القائمة والاستعمار. فالاستعمار لم يكن يخشى أن يتعلم السودانيون أو أن يصبحوا موظفين وضباطاً متعلمين، بقدر ما كان يخشى أن يتحول التعليم إلى وعي يسائل بنية السلطة نفسها: ما هو السودان؟ ومن يمثله ويتحدث باسمه؟

فالسطة لا تخشى السؤال لأنه سؤال. إنها تخشاه عندما يتحول إلى وعي بالشرعية، والوعي بالشرعية إلى مطالبة بالتمثيل، والمطالبة بالتمثيل إلى فعل سياسي. ولم يعد السؤال بعد ذلك سؤال الاستعمار وحده؛ ظل يتبدل مع كل مرحلة، لكنه بقي في جوهره متعلقاً بمن يملك حق السلطة، ومن يمنحها الشرعية، ومن يملك حق سحبها.

ويمكن وصف التاريخ التالي لثورة 24 وإثارتها لسؤال الشرعية بأنه تاريخ البحث عنها، أو التاريخ المتكرر لأزمة الشرعية، الذي عبّر عن نفسه بالانقلابات والثورات والحروب. ولعل ما يصل بين تلك اللحظات المتباعدة في التاريخ السوداني هو استمرار السؤال الذي لم يجد طريقه إلى الحسم السياسي والمؤسساتي المستقر: من يملك حق الحديث باسم السودان، ومن يستمد منه الحاكم شرعيته، ومن يملك حق مساءلته؟



شاي وعرديب وبوكس وكتشينة.. البرهان ومحاولة صناعة شعبية زائفة حيدر المكاشفي

ينتقد الكاتب محاولات قائد الجيش السوداني عبد الفتاح البرهان صناعة شعبية عبر مشاهد احتسائه الشاي والعرديب، وقيادة سيارة بوكس، ومشاركة الجنود لعب الكوتشينة، معتبراً أنها محاولات لتجميل صورته إعلامياً.

ملخص

يؤكد أن الشعبية الحقيقية تتطلب وقف الحرب وحماية المدنيين، ومحاسبة المسؤولين عن الانتهاكات، ومكافحة الفساد، واحترام الحريات والصحافة المستقلة، وتقديم مسار واضح لاستعادة الحكم المدني الديمقراطي.

يرى أن التقرب من المواطنين لا يتحقق بالصور والمشاهد العابرة، بل بمعالجة معاناتهم المعيشية، وتوفير الأمن والخدمات، ودعم التعليم والصحة، ومواجهة الغلاء وتدهور الاقتصاد.

يخلص الكاتب إلى أن الشاي والعرديب والبوكس والكتشينة لا تصنع شرعية سياسية، وأن ثقة السودانيين تبنى بالإنجاز والمساءلة وتحسين حياتهم، لا بحملات التلميع والصور الإعلامية.



التي كان يقودها ليقلمهم، فإنهم لا يحتاجون إلى رحلة مجانية عابرة، بقدر حاجتهم إلى مدارس آمنة وتعليم منتظم ومستقبل لا تلتهمه الحرب. ولا يحتاج الصبية الذين يلعبون كرة القدم في ميدان الحي إلى أن يجلس القائد على إطار عربية قديم لمشاهدتهم، وإنما يحتاجون إلى وطن يستطيعون فيه اللعب والحلم من دون أن تطاردهم أصوات الرصاص أو تهددهم مخاطر النزوح والفقر وضيق الفرص.

المشكلة ليست في أن يشرب البرهان الشاي أو العرديب، ولا في أن يقود سيارة بوكس أو يجلس على الأرض، المشكلة في الاعتقاد بأن هذه المشاهد يمكن أن تحل محل السياسة أو أن تعوض غياب الإنجاز أو أن تمنح صاحب السلطة رصيذاً شعبياً لا تسنده الوقائع.

فالشاي مشروب شعبي، والعرديب مشروب سوداني مألوف، والبوكس وسيلة نقل يعرفها الناس، والكويتشينة لعبة لا تحتاج إلى بروتوكول رئاسي. لكن أياً من ذلك لا يتحول بمجرد ظهور قائد الجيش وهو يمارسه، إلى شهادة حسن سير وسلوك سياسي ولا إلى استفتاء شعبي مجاني على أدائه.

إنها في أحسن الأحوال لقطات تصلح للاستهلاك الإعلامي السريع، وفي أسوأ الأحوال محاولة لاختزال علاقة معقدة بين الحاكم والمحكوم في مشاهد عاطفية قصيرة تختفي بانتهاء التصوير، بينما تظل الأسئلة الكبرى معلقة في الهواء.

فالشعبية ليست مشهداً بل موقف وسجل، والشعبية الحقيقية لا تقاس بعدد الأكواب التي احتساها المسؤول وسط المواطنين، ولا بعدد الصور التي ظهر فيها متواضعاً، ولا بقدرته على الجلوس القرفصاء أو الاندماج في جلسة

يحاول البرهان صناعة شعبية وجماهيرية زائفة لنفسه بعدد من التصرفات الغريبة والعجيبة، كأن يجلس إلى جوار بائعة شاي في الشارع العام ويحتسي كوب شاي، أو يتجول في سوق شعبي ويقف أمام محل بائع عصير شعبي ويشرب كوباً من العرديب، أو يقود سيارة بوكس ويقف لبعض الطلاب ليقلمهم في السيارة، أو يجلس على إطار عربية قديم ويشاهد مباراة في كرة القدم لبعض الصبية، أو يجلس القرفصاء على بساط ويلعب الكوتشينة مع بعض الجنود، وهكذا ينشط البرهان في محاولات دؤوبة لخلق شعبية وجماهيرية مصنوعة وزائفة لنفسه.

ولكن هناك ثمة مشكلة حقيقية تواجه الفريق البرهان في رحلة بحثه المضنية عن الشعبية والجماهيرية، وهي أنه يبدو كمن اكتشف فجأة أن الطريق إلى قلوب السودانيين لا يمر عبر القصور والمواكب العسكرية والمناظر الرسمية، وإنما عبر بائعة شاي في الشارع، وكوب عرديب أمام محل عصير شعبي، وقيادة سيارة بوكس، والجلوس على إطار عربية قديم، والتربع على بساط تلعب فوقه الكوتشينة مع الجنود.

وهكذا، بدلاً من أن تتحدث السلطة عن إنجازاتها، أو تقدم كشف حساب للشعب، نشاهد مشاهد تبدو وكأنها حلقات من برنامج عنوانه (البرهان في الميدان)، مرة يحتسي الشاي، ومرة يشرب العصير، ومرة يقود البوكس، ومرة يتحول إلى مشجع لكرة القدم في حارة شعبية، ومرة يجلس القرفصاء ليلعب الكوتشينة مع الجنود. ولا ندري إن كان هناك مستشار إعلامي أو سياسي يقف وراء هذه المشاهد، أم أن البرهان قرر بنفسه اكتشاف أسرار الكاريزما الجماهيرية. لكن المؤكد أن ثمة خلطاً واضحاً بين الظهور بمظهر الإنسان القريب من الناس، وبين أن يكون المرء قريباً بالفعل من همومهم وآلامهم وتطلعاتهم. فبائعة الشاي لا تحتاج إلى أن يجلس البرهان بجوارها لدقائق كي تعرف أنه مهتم بها، وإنما تحتاج إلى دولة تضمن لها الأمن، وتحمي مصدر رزقها، وتوفر لها الخدمات، ولا تتركها تواجه وحدها أعباء الحرب وارتفاع الأسعار وانهايار قيمة الجنيه.

وبائع العرديب لا يحتاج إلى أن يشرب القائد من محله المتواضع كي يشعر بأهمية وجوده، بل يحتاج إلى اقتصاد لا يخنق أصحاب الأعمال الصغيرة، وسوق يستطيع فيه المواطن شراء ما يحتاج إليه من دون أن يصبح الحصول على أبسط ضروريات الحياة معركة يومية. أما الطلاب الذين أوقف البرهان السيارة البوكس

كوتشينة. إنها حصيلة مواقف وسياسات وقرارات ونتائج يلمسها الناس في حياتهم اليومية. ولو أراد البرهان أن يحظى بشعبية حقيقية، فإن أمامه ما هو أهم بكثير من التجول في الأسواق والحواري والجلوس إلى بائعات الشاي. وأول ما يحتاج إليه هو أن يجعل وقف الحرب وحماية المدنيين وفتح الطريق أمام السلام أولوية فعلية، لا مجرد عبارات تتكرر في الخطابات. فالسوداني الذي فقد منزله أو أحد أفراد أسرته لا يستطيع أن يستبدل خسارته بصورة للرئيس وهو يشرب العرديب. والأم التي تبحث عن الطعام والدواء لأطفالها لا يمكن مطالبتها بأن تستمد الطمأنينة من مشهد عابر في سوق شعبي. وثاني ما يحتاج إليه هو أن يقدم إجابات واضحة عن المسؤولية عن الانتهاكات التي تعرض لها المدنيون المعدنون مؤخرًا، وأن يدعم تحقيقات دولية مستقلة وشفافة ومحاسبة عادلة، بدلًا من ترك الأسئلة معلقة أو التعامل معها باعتبارها عبئًا إعلاميًا ينبغي تجاوزه.

وثالثها أن يواجه الفساد ويضبط الإنفاق العام ويكبح الفوضى الاقتصادية، ويعيد الاعتبار للخدمات الأساسية من صحة وتعليم وكهرباء ومياه. فالمواطن لا يريد أن يرى المسؤول يأكل مما يأكل ويشرب مما يشرب فحسب، يريد أن يعرف لماذا تدهورت حياته، ومن المسؤول عن ذلك، وماذا ستفعل السلطة لتغييره.

ورابعها أن يفتح المجال أمام الحريات العامة والصحافة المستقلة والنقد السياسي، وأن يقبل حق المواطنين في معارضة السلطة ومساءلتها من دون تخوين أو تهديد. فالحاكم الذي يريد أن يسمع التصفيق وحده لن يعرف حقيقة شعبيته مهما كثرت الصور التي يظهر فيها بين الناس. أما خامسها، والأكثر أهمية، فهو أن يوضح موقفه من استعادة الحكم المدني الديمقراطي، وأن يقدم مسارًا سياسيًا واضحًا ومقنعًا ينهي احتكار العسكريين للقرار، ويعيد السلطة إلى مؤسسات مدنية تستمد شرعيتها من إرادة المواطنين.

وبالطبع، لن نطلب من البرهان أن لا يغشى الأسواق الشعبية، أو أن يمتنع عن شرب الشاي مع البائعات. لكن الفارق كبير بين مسؤول ينزل إلى الشارع ليسمع شكوى الناس ويعود ليعالج أسبابها، ومسؤول ينزل إليه ليصنع صورة توحى بأنه واحد منهم، ثم يتركهم يواجهون مشكلاتهم كما كانوا.

وهناك ثمة ما ينبغي ألا يغيب عن البرهان ومن يتولون تسويق صورته، إن السودانيين

ليسوا جمهورًا ساذجًا ينتظر ظهور المسؤول في مشهد شعبي كي ينسى ما يجري حوله. إنهم مواطنون خبروا السلطة وخطابها ووعودها، ويعرفون الفرق بين من يقترب منهم ليشركهم أعباء الحياة، ومن يقترب منهم ليحصل على صورة جديدة في أرشيف العلاقات العامة. فالحكم على صدق المسؤول لا يكون من الصورة وحدها، وإنما من اتساقها مع سلوكه وسياساته ونتائج عمله.

غير أن تكرار هذه المشاهد إذا لم يصاحبه تغيير ملموس في حياة الناس، يجعل السؤال مشروعًا: هل نحن أمام تواصل حقيقي مع المواطنين، أم أمام محاولة لتجميل صورة القائد؟

ثم إن الشعبية ليست سلعة يمكن شراؤها بكوب شاي، ولا هبة يمنحها بائع عصير، ولا جائزة يفوز بها من يتقن الجلوس على إطار عربية.

الشعبية ثقة، والثقة لا تُفرض بالأوامر، ولا تُستجدي بالصور، ولا تُنتزع من المواطنين عبر حملات التلميع. إنها تُبنى حين يشعر الناس أن الحاكم يعمل من أجلهم، ويخضع للمساءلة أمامهم، ويحترم حقهم في اختياره أو رفضه. فليحتس البرهان ما شاء من الشاي والعرديب، وليجلس حيث يشاء، وليقد البوكس إن أراد، لكن عليه أن يدرك أن كوب الشاي لا يوقف حربًا، وقيادة السيارة لا تعيد نازحًا إلى منزله، وجلسة الكوتشينة لا تبني دولة، وصورة في سوق شعبي لا تمنح شرعية سياسية.

قد تنجح هذه المشاهد في صناعة انطباع عابر، وقد تحصد الإعجابات والتعليقات، لكنها لن تجيب عن السؤال الأهم: ماذا قدمت السلطة للسودانيين، وماذا ستفعل لإنهاء الحرب واستعادة الدولة والحكم المدني؟ ذلك هو الامتحان الحقيقي للشعبية.

أما بقية المشاهد، فمهما بدت عفوية، فإنها تظل مجرد صور في ألبوم سياسي مزدحم بالأسئلة التي لم تجد إجاباتها بعد.

فالشعبية لا تُصنع بالجلوس إلى جوار الشعب لبضع دقائق، بل بالوقوف إلى جانب حقوقه ومصالحه ومستقبله. وهذه مسألة لا يحلها الشاي والعرديب والبوكس والكتشينة.

... ونختتم بطريقة ذلك الساخر الساخط، قيل إن رجلًا ساخطًا على الحال وساخرًا منه، أوقفه شرطي عند نقطة تفتيش وطالبه بإبراز البطاقة الشخصية، رد عليه الرجل بضجر وتأفف: (هي وينا الشخصية البطلعوا ليها بطاقة) تعبيرًا عن الحال والوضع السيئ الذي يكابده.



مئات الأطنان من «الفول المصري» بمنفذ القلابات تواجه مصيراً مجهولاً

تواجه مئات الأطنان من الفول المصري والأرز المحتجزة بمنفذ القلابات الحدودي في ولاية القضايف مصيراً مجهولاً، وسط مخاوف التجار من تلف البضائع وتكبّد خسائر تُقدّر بنحو 5 تريليونات جنيه سوداني.

ملخص

تزامن احتجاز البضائع مع قرار رئيس الوزراء كامل إدريس حظر أكثر من 30 سلعة، وتعليق إصدار شهادات عدم الممانعة لاستيراد الفول المصري، ما أدى إلى ارتفاع سعر جوال الفول زنة 25 كيلو غراماً في الخرطوم من 290 ألفاً إلى 350 ألف جنيه.

قال تجار لـ«أفق جديد» إن شاحناتهم ظلت محتجزة لأكثر من شهرين، فيما علقت السلطات الإجراءات الجمركية والتسويات، دون تحديد موعد لاستكمالها، رغم تسلّم بعض التجار أورنيكات للتسوية منذ مارس الماضي.

كشفت مصادر جمركية عن طلب لمعالجة الأزمة واستثناء تجارة الحدود من قرار الحظر، محذرة من أن استمرار القيود قد يفتح الباب أمام التهريب، في وقت تعتمد فيه أسواق القضايف على السلع القادمة من إثيوبيا.

مئات الأطنان من البضائع القادمة من إثيوبيا عبر منفذ القلابات الحدودي تواجه مصيراً مجهولاً



«يتخوف التجار من تلف الفول المصري بسبب ظروف الاحتجاز غير المطابقة للمواصفات».

الإجراءات الجمركية.

وينص الأورنيك في حال لم يتم تكملة الإجراءات في الفترة المحددة، سيتم الحجز، كما يحق للسلطات بيعها أو التصرف فيها. ووجهت وزارة الزراعة الجهات ذات الصلة بتعليق إصدار شهادات عدم الممانعة لاستيراد الفول المصري من جميع الدول، وإزاء ذلك شهدت أسعار الفول المصري ارتفاعاً ملحوظاً بعد قرار الحظر، حيث ارتفعت قيمة الجوال زنة 25 كجم من 290 ألف إلى 350 ألف جنيه في ولاية الخرطوم. وينتج السودان كميات محدودة من المحصول الأكثر استهلاكاً لملايين السودانيين، حيث يزرع الفول في مساحات محدودة بالولاية الشمالية، وهو لا يكفي حاجة الاستهلاك المحلي.

وجرت العادة أن تخضع البضائع المهربة إلى خيارين، إما تسوية أو إبادة البضاعة، واستطلعت (أفق جديد) 3 تجار تسلموا أرنيك لتسوية معاملاتهم، بينها معاملات معلقة منذ مارس الماضي، إلا أن السلطات لم تكمل الإجراءات، كما لم تحدد فترة زمنية لإنهاء الإجراءات، وسط مخاوف متصاعدة من وقوع خسائر بسبب تلف السلع المحجوزة لدى سلطات الجمارك.

وعلمت (أفق جديد) من مصادر رسمية أن سلطات الجمارك في ولاية القضارف دفعت بطلب معالجات عاجلة، وكشف مصدر رفيع في شرطة الجمارك عن طلب تقدمت به سلطات الجمارك للرئاسة لعمل ملاحق لقرار حظر السلع، على أن يتم استثناء تجارة الحدود من قرار حظر السلع، وعزا المصدر ذلك إلى أن التجارة الحدودية عبر المعابر تتعامل بالعملة المحلية ولا تتأثر بسعر الدولار، مشدداً على أن قرارات الحظر عادة تفتح الباب أمام التهريب، بما يترتب على ذلك دخول الممنوعات تحت غطاء تهريب السلع، وهو ما يضع على عاتق سلطات الجمارك مهام إضافية.

وقدر تجار قيمة السلع المحجوزة بنحو 5 تريليون جنيه سوداني، وتعتمد أسواق ولاية القضارف على السلع القادمة من إثيوبيا، كما يجري توزيع بعض السلع خارج الولاية.

رصدت «أفق جديد» تكديس مئات الأطنان من البضائع القادمة من إثيوبيا عبر منفذ القلابات الحدودي، وأبدى عدد من التجار مخاوفهم من خسائر مالية جراء تلف بضائعهم المحجوزة بواسطة سلطات الجمارك، بالتزامن مع قرار رئيس الوزراء القاضي بحظر السلع.

وأصدر رئيس الوزراء كامل إدريس في أبريل الماضي قراراً قضى بحظر أكثر من 30 سلعة وصفها القرار بـ«غير الضرورية»، في محاولة للسيطرة على سعر صرف الجنيه مقابل الدولار، وأثار القرار ردود فعل متباينة، بينما شهدت العديد من السلع المحظورة وبدائلها ارتفاعاً ملحوظاً في الأسعار.

وشهدت العملة الوطنية السودانية تدهوراً متسارعاً أمام الدولار، وتجاوزت قيمة الجنيه أمام الدولار حاجز 8 آلاف، وسط مخاوف باستمرار التدهور.

وأبلغ تجار في منفذ القلابات أن «الفول المصري والأرز» يمثلان غالبية السلع المحجوزة لدى سلطات الجمارك بولاية القضارف، واحتجزت السلطات في القضارف شاحنات محملة بالسلع الاستهلاكية كانت قيد الإجراءات الجمركية قبل أن يصدر رئيس الوزراء قرار حظر السلع، لتتضاعف البضائع المحتجزة والتي لا تزال تواجه مصيراً مجهولاً.

ويتخوف التجار من تلف الفول المصري بسبب ظروف الاحتجاز غير المطابقة للمواصفات، وقال التاجر «عثمان» في حديثه لـ«أفق جديد» إن السلطات الجمركية احتجزت شاحنته المحملة بالسلع منذ أكثر من شهرين، قبل أن يتم توجيهه لإجراء تسوية للمعاملة وفقاً لأورنيك «59»، لكن السلطات علقت جميع المعاملات لتواجه مئات الأطنان من السلع مصيراً مجهولاً.

وينص أورنيك «59» على تكملة الإجراءات الجمركية في فترة محددة، واطلعت (أفق جديد) على نسخة من الأورنيك لمعاملة مع أحد التجار لم يُحدد فيها الفترة الزمنية، حيث تُركت الخانة فارغة، وهو ما يشير إلى تعليق

«ارتفعت قيمة جوال الفول المصري زنة 25 كيلوغراماً من 290 ألفاً إلى 350 ألف جنيه في ولاية الخرطوم».



مشروع الجزيرة.. أسراب الطيور تبدد أحلام المزارعين

يواجه مزارعو مشروع الجزيرة هجوماً واسعاً من أسراب الزرزور على محصول الذرة، قبل أيام قليلة من الحصاد، ما يهدد بتبديد جهود موسم زراعي كامل.

ملخص

لجأ المزارعون إلى وسائل بدائية، مثل الطرق على الأواني وإحداث الضوضاء لإبعاد الطيور، لكنها لم تنجح في وقف الهجمات، وسط مخاوف من اتساع الخسائر وتراجع الإنتاج.

رصدت جولة ميدانية لـ«أفق جديد» أضراراً في عدد من الأقسام والتفاتيح، بينها تلف محصول أربعة أفدنة بالكامل في تفتيش ود هلال، وفق إفادة أحد المزارعين.

طالب مزارعون ومسؤولون بالإسراع في تدخل جهات وقاية النباتات لمكافحة الآفة وإنقاذ ما تبقى من المحصول، محذرين من تداعيات الخسائر على مصادر رزق الأسر وقدرة المزارعين على مواصلة الإنتاج.

زراعية وتضرر منشآت الري والمخازن والورش والمحالج، إلى جانب نزوح مزارعين وعمال زراعيين وعمليات نهب واسعة طالت مخازن المحاصيل.

خلال جولة ميدانية واسعة لـ«أفق جديد» في أقسام وتفتيش مشروع الجزيرة، بدت آثار هجوم الطيور حاضرة في أحاديث المزارعين وشكاواهم. فقد رصدت الجولة انتشار أسراب الزرزور وحجم الأضرار التي لحقت بالمحاصيل، في وقت يقترب فيه الموسم من نهايته، وتضييق معه فرص إنقاذ الإنتاج.

في قسم 66 الهشابة، يروي المزارع أسعد عبد المنعم جانباً من معاناته مع أسراب الطيور التي هاجمت محصوله الصيفي، رغم محاولاته المتكررة إبعادها بالوسائل البدائية. ويقول لـ«أفق جديد» إن المزارعين لجأوا إلى الطرق على الأواني المنزلية وإحداث الضوضاء لإخافة الطيور ومنعها من الاستقرار على الحقول، لكن هذه المحاولات لم تكن كافية لوقف الهجوم.

وتكشف هذه الوسائل عن حجم العجز الذي يواجهه المزارعون في التصدي للآفة، إذ يجدون أنفسهم مضطرين إلى حماية محاصيلهم بجهود فردية، في مواجهة أسراب تتكاثر وتنتقل بين الحقول، بينما تتطلب مكافحة تدخلًا منظمًا يتجاوز إمكانات المزارع الواحد. وبالنسبة إلى أسعد، كما بالنسبة إلى غيره من مزارعي المشروع، فإن الخطر لا يتعلق بما فقدوه بالفعل، فحسب، بل بما

لم يكن يفصل المزارعين في مشروع الجزيرة عن جني محصول الذرة سوى أيام قليلة، حين تحولت الحقول التي انتظروا موسمها بشق الأنفس إلى ساحة مفتوحة لأسراب الطيور. في مرحلة «اللبنه والشرابة»، التي تسبق الحصاد، وبينما كانت السنابل تقترب من اكتمال نضجها، هاجمت أسراب الزرزور المحاصيل، تاركة وراءها مساحات متضررة وخسائر تهدد حصيلة موسم زراعي كامل.

في تلك الحقول، لا تبدو الخسارة مجرد ذرة التهمتها الطيور، بل تعب شهور طويلة، وأموال أنفقت على الزراعة ومدخلاتها، وأمال علقها المزارعون على محصول كان يُفترض أن يوفر لهم دخلاً يعينهم على مواجهة أعباء الحياة. ومع اتساع انتشار الآفة في عدد من أقسام وتفتيش المشروع، تتزايد المخاوف من تراجع إنتاج الذرة إلى مستويات متدنية، بينما يقف المزارعون أمام خطر يهدد ما تبقى من محاصيلهم، في انتظار تدخل عاجل لاحتواء أسراب «الزرزير».

حقول تحت الهجوم

يمتد مشروع الجزيرة الزراعي على مساحة تبلغ نحو 2,2 مليون فدان، بما يعادل قرابة 924 ألف هكتار، ويعد من أبرز مشروعات الزراعة المروية في السودان منذ تأسيسه عام 1925.

تعرض المشروع لاضطرابات واسعة عقب سيطرة قوات الدعم السريع على مدينة ود مدني ومناطق واسعة من ولاية الجزيرة في ديسمبر 2023، واستمرت السيطرة على المنطقة حتى استعاد الجيش السوداني مدينة ود مدني في يناير 2025. وشهدت تلك الفترة تعطل عمليات

- «لجأنا إلى الطرق على الأواني المنزلية وإحداث الضوضاء لإخافة الطيور، لكن هذه المحاولات لم تكن كافية لوقف الهجوم».

- «أُتلفت أسراب الطيور محصول الذرة بالكامل في مساحة تبلغ أربعة أفدنة».



يمكن أن تلتهمه الطيور من محاصيل لا تزال قائمة، في وقت لم يعد فيه الموسم يحتمل مزيداً من التأخير.

خارج دائرة الإنتاج

على امتداد ترعة الدار، في تفتيش ود هلال، تبدو الخسارة أكثر قسوة في تجربة المزارع أحمد سعيد، الذي يقول إن أسراب الطيور أُلقت محصول الذرة لديه بالكامل في مساحة تبلغ أربعة أفدنة.

لم يعد أحمد ينتظر حصاداً يعوض نفقات الزراعة، بل بات يبحث عن مخرج من خسارة الموسم. ويقول إنه خرج من دائرة الإنتاج، وإنه بصدد بيع ما تبقى من المحصول لأصحاب الحيوانات.

وبين قرار البيع وفقدان فرصة الحصاد، تتجسد المأساة التي يعيشها المزارع حين تتحول الأرض التي استثمر فيها ماله وجهده إلى مصدر للخسارة بدلاً من أن تكون مصدر رزقه. فالمحصول الذي كان ينتظر أن يجنيه ويبيعه بات، وفق إفادته، أقرب إلى محصول لا يمكن الاستفادة منه بالطريقة التي خطط لها. ولا تتوقف آثار هذه الخسارة عند حدود الحقل؛ فالمزارع الذي يفقد إنتاجه يواجه أيضاً صعوبة في استرداد ما أنفقه على الموسم، فضلاً عن التزاماته المعيشية والزراعية، واحتمال عجزه عن توفير تكاليف دورة إنتاج جديدة. وهكذا، لا تبدو الأفدنة الأربعة المتضررة مجرد مساحة صغيرة وسط مشروع زراعي واسع، بل مثلاً على ما قد يحدث حين تصل الآفة إلى المحصول في أكثر مراحل حساسية، قبيل أن يتحول إلى غلال في المخازن أو أموال في أيدي أصحابها.

الزرزور يهدد الذرة

من جانبه، يشارك المزارع عوض موسى زملاءه القلق إزاء الانتشار المتزايد لأسراب الزرزور، واصفاً الوضع بأنه مخيف، ومحدراً

- «الوضع مخيف، واستمرار هجمات الزرزور يهدد بالقضاء على محصول الذرة في المساحات المتضررة».

- «خرجت من دائرة الإنتاج، وباتت أمامي خسارة الموسم والبحث عن مخرج لبيع ما تبقى من المحصول لأصحاب الحيوانات».

وفي المقابل، يحتاج المزارعون إلى تحرك يستند إلى تقدير ميداني دقيق لحجم الإصابة وانتشار الطيور، وتحديد التدابير المناسبة للمكافحة بالتنسيق مع المختصين، بدلاً من تركهم يواجهون الأسراب بوسائل فردية محدودة الفاعلية.

موسم يوشك أن يتحول إلى خسارة

في مشروع الجزيرة، حيث ترتبط حياة آلاف الأسر بما تنتجه الأرض، لا تأتي خسارة المحصول في مرحلة ما قبل الحصاد بوصفها حادثة عابرة. إنها ضربة تطال دورة حياة كاملة، تبدأ بتجهيز الأرض وزراعتها، وتثمر بانتظار الأمطار ونمو السنابل، وتنتهي عادة بفرحة الحصاد الذي يعول عليه المزارع لتسديد ديونه وتوفير احتياجات أسرته والاستعداد للموسم التالي.

لكن أسراب الزرزور تهدد بقلب هذه المعادلة؛ فبدلاً من أن ينشغل المزارع بتجهيز أدوات الحصاد، بات يراقب السماء والحقول، ويطلق الأواني المنزلية أملاً في إبعاد الطيور، بينما تتراجع أمام عينيه فرص إنقاذ ما زرعه. وبالنسبة إلى أحمد سعيد، الذي يقول إن أربعة أفدنة خرجت من حسابات الإنتاج، فإن الخسارة أصبحت واقعاً يفرض عليه التفكير في بيع المحصول لأصحاب الحيوانات. أما أسعد عبد الله وهاشم موسى، فينقلان صورة القلق الذي يخيم على المزارعين وهم يشاهدون أسراب الطيور تواصل الهجوم، في انتظار تدخل ق همد ينقذ ما تبقى من الموسم.

وإذا كانت السنابل قد أوشكت على النضج، فإن أحلام أصحابها باتت معلقة بسباق مع الزمن: إما أن تصل المكافحة في الوقت المناسب، أو أن تتحول شهور العمل والإنفاق والانتظار إلى موسم من الخسارة، يحمل المزارع تبعاته وحده. ففي حقول الجزيرة، لا تلتهم أسراب الزرزور حبوب الذرة فحسب؛ إنها تهدد أيضاً لقمة عيش أسر كاملة، وقدرتها على العودة إلى الأرض وزراعتها من جديد.

من أن استمرار الهجمات يهدد بالقضاء على محصول الذرة في المساحات المتضررة. ويناشد موسى الجهات المسؤولة الإسراع في التدخل لمكافحة الآفة، قبل أن تتسع الخسائر ويصبح إنقاذ ما تبقى من المحصول أكثر صعوبة.

وتعكس هذه المناشدات شعوراً متزايداً بالقلق بين المزارعين الذين يرون أن الوقت المتاح للمكافحة يتناقص كلما اقترب موعد الحصاد. فالذرة في مرحلة «اللينة والشرابية» تكون قد قطعت شوطاً طويلاً من عمرها الزراعي، وأصبح المزارع أقرب إلى جني ثمار جهده، لكن هجوم الطيور يهدد بتبديد ذلك الجهد في أيام قليلة. ومع اتساع نطاق الضرر الذي رصدته الجولة الميدانية، تتزايد الحاجة إلى تقييم حجم المساحات المتأثرة، وتحديد المناطق الأكثر تضرراً، والتحرك بصورة عاجلة ومنسقة بين الجهات المختصة والمزارعين، بما يساعد على الحد من الخسائر وحماية ما تبقى من الإنتاج.

ناقوس خطر ومطالب بالتدخل

وفي مواجهة اتساع الأضرار، دق رئيس مجلس التنظيم بالتفتيش، الأمين المهدي، ناقوس الخطر، مطالباً جهات وقاية النباتات بالإسراع في مكافحة الآفة والحد من انتشار أسراب الطيور التي تهدد محصول الذرة. وتضع هذه المطالبات الجهات المختصة أمام مسؤولية التدخل في توقيت بالغ الحساسية، إذ إن التأخير قد يعني اتساع المساحات المتضررة وفقدان مزيد من الإنتاج قبل وصوله إلى مرحلة الحصاد.

ولا تقتصر أهمية التدخل على حماية المحاصيل القائمة، بل تمتد إلى تقليل الخسائر الاقتصادية التي يتحملها المزارعون، والحفاظ على قدرتهم على مواصلة النشاط الزراعي في المواسم المقبلة. فالمزارع الذي يخسر محصوله بالكامل لا يفقد عائده المتوقع وحده، وإنما قد يجد نفسه عاجزاً عن تمويل موسم جديد، ما يهدد باستمرار دائرة الخسارة وتراجع الإنتاج.



«الجنيه» في دوامة التراجع والأعباء المعيشية للسودانيين تتضاعف

سجل الدولار في السوق الموازي ارتفاعاً إلى ما بين 9200 و9500 جنيه، فاقداً الجنيه السوداني نحو 93% من قيمته منذ اندلاع الحرب في أبريل 2023، وسط اتساع الفجوة بين أسعار الصرف المصرفية والموازية.

ملخص

يثير تخصيص النقد الأجنبي لاستيراد الوقود بأسعار تفضيلية تساؤلات بشأن جدوى هذه السياسة وفعاليتها، وسط مطالب بمراجعة آليات التمويل وتعزيز الشفافية، مع التأكيد أن أزمة الجنيه ترتبط باختلالات اقتصادية أوسع ولا تقتصر على واردات الوقود.

يعزو متعاملون وباحثون اقتصاديون التراجع إلى استمرار الحرب، وانخفاض الإنتاج والصادرات، وشح النقد الأجنبي، وزيادة الطلب على الدولار لتمويل الواردات، إلى جانب تراجع الثقة في الجهاز المصرفي.

تتضاعف الأعباء المعيشية مع ارتفاع أسعار الغذاء والوقود والخدمات؛ إذ زادت تكلفة سلة الغذاء المحلية 94% على أساس سنوي، وفق برنامج الأغذية العالمي، فيما تضاعف سعر جوال الدخن من 300 ألف إلى 600 ألف جنيه خلال أكتوبر، ما يفاقم تآكل القدرة الشرائية ويهدد الأمن الغذائي للأسر.

بيع معلن بين البنوك 6448 جنيهاً، بفارق يبلغ 2852 جنيهاً عن سعر السوق الموازي، أي ما يعادل نحو 44,2% من السعر المصرفي الأعلى. وبحسب قوائم أسعار الصرف المعلنة، تصدر بنك النيل المصارف من حيث سعر بيع الدولار، مسجلاً 6448 جنيهاً، بينما سجل البنك السعودي السوداني أدنى سعر بيع عند 2035,15 جنيهاً، بفارق بلغ 4412,85 جنيهاً بين المصرفين، وهو ما يبرز التباين الواسع في الأسعار المعلنة داخل الجهاز المصرفي نفسه. وفي شريحة الأسعار الأعلى، حدد بنك المال المتحد سعر بيع الدولار عند 5550,07 جنيهاً، مقابل 5508,75 جنيهاً للشراء، فيما بلغ سعر البيع في بنك السودان الفرنسي 5541,25 جنيهاً، مقابل 5500 جنيه للشراء. وفي محاولة لتقليص الفجوة بين أسعار الصرف في المصارف وسعر السوق الموازي، أصدر بنك السودان المركزي أواخر أغسطس الماضي، منشوراً منح بموجب المصارف مرونة أوسع في تعديل أسعار الصرف المعلنة وشراء حصائل الصادرات وفقاً لحركة العرض والطلب في سوق النقد الأجنبي، وقال البنك إن الخطوة تأتي في إطار مواصلة سياسة تحرير سعر الصرف.

زيادة الطلب ومحدودية العرض

قال متعامل في سوق العملات بالخرطوم لـ«أفق جديد» إن استمرار انخفاض قيمة الجنيه السوداني يظل احتمالاً قائماً ما دامت العوامل التي تضغط على سوق الصرف مستمرة، مشيراً إلى أن زيادة الطلب على الدولار لتغطية احتياجات الاستيراد، مقابل محدودية المعروض من النقد الأجنبي، تسهم في دفع الأسعار إلى مستويات أعلى. وأضاف أن استمرار الحرب وتراجع النشاط الإنتاجي والصادرات، إلى جانب ضعف تدفقات العملات الأجنبية عبر القنوات المصرفية الرسمية، تزيد من صعوبة استقرار سعر الصرف.

تتزايد الضغوط على الجنيه السوداني في ظل استمرار الحرب وتراجع النشاط الإنتاجي والصادرات وشح موارد النقد الأجنبي، وسط اختلالات اقتصادية تعمق أزمة سوق الصرف وتحد من فرص استقرار العملة المحلية.

ولا تقتصر تداعيات هذه الأزمة على الأسواق والمعاملات التجارية، بل تمتد إلى الأوضاع المعيشية للمواطنين، مع ارتفاع تكاليف الغذاء والوقود والنقل والخدمات الأساسية وتراجع القدرة الشرائية للأسر.

وبين اتساع الفجوة بين أسعار الصرف المصرفية والموازية وتزايد الطلب على العملات الأجنبية، تتصاعد التساؤلات بشأن أسباب استمرار تراجع الجنيه وفاعلية السياسات المتبعة لمعالجة الأزمة.

سعر صرف الدولار الأميركي مقابل الجنيه السوداني سجل ارتفاعاً جديداً في السوق الموازي، مقترباً من مستوى 9500 جنيه، في تراجع حاد للعملة المحلية التي فقدت نحو 93% من قيمتها مقابل الدولار منذ اندلاع الحرب في أبريل 2023، حين كان يتداول بنحو 600 جنيه. وبحسب متابعات «أفق جديد»، تجاوزت تعاملات السوق خلال الأسبوع الماضي نطاق 9200 إلى 9500 جنيه للدولار، وسط تذبذب في أسعار الشراء والبيع وتفاوت العروض بين التجار.

وارتفع متوسط سعر الشراء من 8800 جنيه إلى 9100 جنيه، خلال يوم واحد، بزيادة بلغت نحو 3,41%، فيما سجل متوسط سعر البيع زيادة بنحو 3,33%، بعد عودة الدولار إلى مستوى 9000 جنيه الثلاثاء ومواصلة صعوده لاحقاً.

وتعكس هذه التطورات استمرار الضغوط على الجنيه السوداني، في ظل اتساع نطاق تداول الأسعار وتباينها بين المتعاملين في السوق الموازي.

يأتي ذلك في ظل اتساع الفجوة بين أسعار صرف الدولار المعلنة في المصارف السودانية وسعره في السوق الموازي، إذ بلغ أعلى سعر

«فقدت العملة المحلية نحو 93% من قيمتها مقابل الدولار منذ اندلاع الحرب
في أبريل 2023، حين كان يتداول بنحو 600 جنيه».

«تعكس هذه التطورات استمرار الضغوط على الجنيه السوداني، في ظل اتساع نطاق تداول الأسعار وتباينها بين المتعاملين في السوق الموازي».



على العملات الأجنبية. ورأى أن استمرار الضغوط على العملة المحلية يظل وارداً في حال عدم تحسن تدفقات النقد الأجنبي وزيادة المعروض منه، لكنه لفت إلى أن التنبؤ بمسار الأسعار يظل صعباً في ظل التقلبات الحادة وتغير مستويات الطلب والعرض. وأضاف أن استعادة الاستقرار تتطلب إجراءات تعزز الإنتاج والصادرات، وتدعم الثقة في الجهاز المصرفي، وتحد من اتساع الفجوة بين السعر الرسمي وسعر السوق الموازي.

وأوضح أن اتجاه السوق خلال الفترة المقبلة سيظل مرتبطاً بحجم المعروض من الدولار، ومستوى الطلب عليه، وأي تطورات اقتصادية أو أمنية قد تؤثر على حركة التجارة والتحويلات. من جانبه، أشار متعامل آخر في سوق العملات بمدينة بورتسودان لـ«أفق جديد» إلى أن تراجع الجنيه لا يرتبط بالمضاربات وحدها، بل يتأثر أيضاً باختلالات أوسع في الاقتصاد، من بينها تراجع الإيرادات العامة، وتذبذب عائدات الصادرات، والطلب المتزايد

«اتساع الفجوة بين أسعار الصرف المصرفية والسوق الموازي يبرز التباين الواسع في الأسعار المعلنة داخل الجهاز المصرفي نفسه».

«زيادة الطلب على الدولار لتغطية احتياجات الاستيراد، مقابل محدودية المعروض من النقد الأجنبي، تسهم في دفع الأسعار إلى مستويات أعلى».

اختلالات هيكلية

يؤكد الباحث الاقتصادي بدر الدين عبد الرحيم، على أن تراجع قيمة الجنيه السوداني يرتبط بمجموعة من الاختلالات الهيكلية التي تفاقم بفعل الحرب، في مقدمتها تراجع الإنتاج والصادرات، وشح النقد الأجنبي، وارتفاع الطلب على الدولار لتمويل الواردات، إلى جانب انخفاض الإيرادات العامة وتراجع الثقة في النظام المصرفي.

وأوضح عبد الرحيم لـ«أفق جديد» أن استمرار الحرب أدى إلى تعطيل قطاعات إنتاجية وتجارية واسعة، وأضعف قدرة الاقتصاد على توليد العملات الأجنبية، في وقت تتزايد فيه الحاجة إلى استيراد السلع الأساسية والوقود.

وأضاف أن عدم تدفق حصائل الصادرات، خصوصاً الذهب، عبر القنوات الرسمية يحد من الموارد المتاحة لتلبية الطلب على النقد الأجنبي، ويزيد الضغوط على سعر الصرف. وأشار الباحث الاقتصادي إلى أن معالجة تدهور الجنيه تتطلب حزمة من التدابير المتكاملة، تشمل زيادة الإنتاج والصادرات، وتحسين إدارة حصائلها، وتعزيز تدفق التحويلات عبر الجهاز المصرفي، إلى جانب ضبط الإنفاق العام والحد من التمويل التضخمي.

وشدد على أهمية إصلاح سوق النقد الأجنبي وتقليص الفجوة بين الأسعار المصرفية والسوق الموازي من خلال آليات أكثر شفافية وفاعلية، مؤكداً أن الإجراءات الإدارية والنقدية وحدها لن تكون كافية لتحقيق استقرار مستدام للعملة المحلية ما لم تُعالج الأسباب الأساسية للأزمة، وفي مقدمتها تداعيات الحرب وتعطل النشاط الاقتصادي وتراجع الإيرادات.

واعتبر عبد الرحيم أن استعادة الاستقرار وتهيئة الظروف لعودة الإنتاج والتجارة تمثلان شرطين أساسيين لتحسين موارد النقد الأجنبي والحد من استمرار تراجع الجنيه.

تمويل واردات الوقود

بحسب مراقبون، يُعدّ الطلب على النقد الأجنبي لتمويل واردات الوقود أحد العوامل التي تزيد الضغوط على الجنيه السوداني، في ظل محدودية موارد البلاد من العملات الصعبة وارتفاع تكاليف الاستيراد والشحن والتأمين. وفي هذا السياق، تكتسب القرارات الحكومية المتعلقة بتحرير أسعار المشتقات البترولية وتعديل سعر الصرف المخصص لتمويل وارداتها أهمية خاصة، إذ كشفت تقارير إخبارية عن دراسة فنية تتضمن التخلي التدريجي عن آليات الدعم الحالية، من دون إعلان رسمي حتى الآن عن اعتماد هذه المقترحات، عدا قرار وزارة الطاقة بتنظيم استيراد المشتقات البترولية الذي صدر الأسبوع الماضي.

ويثير هذا التوجه تساؤلات بشأن حجم الطلب على الدولار الذي يفرضه استيراد الوقود، ومدى تأثير آلية تمويل الواردات على سوق الصرف، فضلاً عن انعكاسات أي تعديل محتمل على أسعار البنزين والجازولين وتكاليف المعيشة، في وقت يواجه فيه الجنيه السوداني تراجعاً متواصلاً أمام العملات الأجنبية.

وفي هذا الصدد يذهب الخبير الاقتصادي أبو عبيدة أحمد سعيد، إلى أن تخصيص النقد الأجنبي لاستيراد الوقود بسعر تفضيلي من بنك السودان المركزي يستدعي إخضاع هذه السياسة لتقييم واضح يحدد العائد الاقتصادي الذي تحققه، ومدى انعكاسها على توفر المشتقات البترولية واستقرار أسعارها في السوق المحلية، مقارنة بالموارد التي تُوجّه لتمويلها.

وأوضح سعيد - في مقال تعليقاً على قرار وزارة الطاقة بتنظيم استيراد المشتقات البترولية - أن حصول الشركات المستوردة للوقود على الدولار بسعر تفضيلي يمثل استخداماً لموارد النقد الأجنبي وفق آلية دعم محددة، الأمر الذي يتطلب إتاحة معلومات واضحة للمواطنين بشأن النتائج التي حققتها هذه السياسة، ومدى إسهامها في ضمان انسياب الإمدادات

«عدم تدفق حصائل الصادرات، خصوصاً الذهب، عبر القنوات الرسمية يحدّ من الموارد المتاحة لتلبية الطلب على النقد الأجنبي، ويزيد الضغوط على سعر الصرف»

وتخفيف أعباء الوقود عن المستهلكين.

تعدد العوامل المؤثرة

وحول تخصيص الدولار لتمويل واردات الوقود، أشار الخبير الاقتصادي إلى أن ذلك لم يمنع تدهور قيمة الجنيه السوداني أمام العملات الأجنبية، لكنه شدد على أن هذه النتيجة لا تعني تحميل سياسة استيراد الوقود وحدها مسؤولية تراجع العملة الوطنية، بالنظر إلى تعدد العوامل المؤثرة في سعر الصرف، وفي مقدمتها حجم الصادرات، وتدفقات النقد الأجنبي، والطلب على الواردات. وأضاف أن تقييم هذه السياسة ينبغي ألا يقتصر على حجم العملات الأجنبية التي يخصصها البنك المركزي لتمويل استيراد الوقود، بل يجب أن يشمل أيضاً ما تحققه هذه المخصصات من نتائج ملموسة، سواء من حيث توفر المشتقات البترولية أو استقرار أسعارها أو الحد من الضغوط التي يتعرض لها المستهلكون.

وأكد سعيد أن جوهر المسألة يتمثل في معرفة ما إذا كانت الموارد المحدودة من النقد الأجنبي تحقق عائداً اقتصادياً يتناسب مع حجمها، مشيراً إلى أهمية إخضاع آليات تخصيص الدولار للمراجعة والتقييم المستمرين، بما يساعد على قياس فاعليتها وتحديد مدى تحقيقها للأهداف المعلنة.

ولفت إلى أن تدهور الجنيه السوداني يرتبط باختلالات أوسع في موارد النقد الأجنبي واستخداماته، وهو ما يجعل معالجة أزمة سعر الصرف بحاجة إلى النظر في مجمل مصادر العملات الصعبة، وفي مقدمتها الصادرات، إلى جانب الطلب على الواردات والسياسات المنظمة لتخصيص النقد الأجنبي.

وشدد الخبير الاقتصادي على أن وضوح معايير تخصيص الدولار وشفافية النتائج المتحققة من استخدامه يمثلان عنصرين أساسيين في تقييم السياسات الاقتصادية، خصوصاً في ظل محدودية الموارد الخارجية

وتزايد الضغوط على سعر الصرف. وأن من شأن إتاحة بيانات دقيقة بشأن تكلفة تمويل واردات الوقود والعائد المتحقق منها أن تساعد في تحديد مدى كفاءة هذه الآلية، وتوفير أساساً موضوعياً لاتخاذ القرارات المتعلقة باستمرارها أو تعديلها.

تزايد الضغوط المعيشية

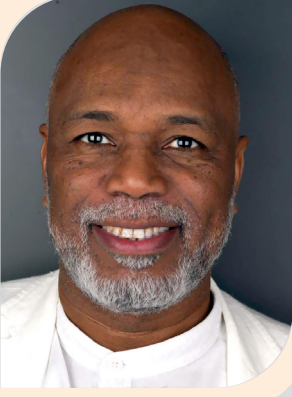
وفي ظل استمرار تراجع قيمة الجنيه السوداني، تتزايد الضغوط على الأوضاع المعيشية للسودانيين، مع ارتفاع أسعار الغذاء والوقود والمواصلات والأدوية والخدمات الأساسية، وتآكل القدرة الشرائية للأسر التي لم تعد دخولها كافية لمواجهة تكاليف الحياة. وتكشف بيانات منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة عن حجم هذه الضغوط، إذ ارتفعت أسعار الذرة الرفيعة والدخن في عدد من الأسواق خلال سبتمبر الماضي، بنسب تراوحت بين 13% و89% بحسب السلعة والسوق، فيما زادت أسعار دقيق القمح بين 26% و64% مقارنة بالشهر السابق.

ووفقاً لبرنامج الأغذية العالمي، ارتفع متوسط تكلفة سلة الغذاء المحلية في أغسطس بنسبة 13% على أساس شهري، وبنسبة 94% مقارنة بالفترة نفسها من العام الماضي، وعلى المستوى المحلي، تضاعف سعر جوال الدخن من 300 ألف إلى 600 ألف جنيه خلال شهر أكتوبر الحالي.

وتعكس هذه الأرقام اتساع الضغوط التي تواجه الأسر في توفير احتياجاتها الأساسية، بفعل تداخل تراجع العملة مع ارتفاع تكاليف النقل والوقود واضطراب الإمدادات وتفاوت الأوضاع بين الأسواق.

ومع استمرار الحرب وتراجع مصادر الدخل، تجد الأسر محدودة الموارد والنازحون أنفسهم أمام خيارات أكثر صعوبة، بين تقليص استهلاك الغذاء والاستدانة والتخلي عن بعض النفقات الضرورية، لتتجاوز أزمة سعر الصرف أسواق العملات وتتحول إلى عبء يومي يهدد الأمن الغذائي ويعمّق هشاشة المعيشة في السودان.

«ارتفع متوسط تكلفة سلة الغذاء المحلية في أغسطس بنسبة 13% على أساس شهري، وبنسبة 94% مقارنة بالفترة نفسها من العام الماضي».



الديمقراطية الاجتماعية: ما بعد الأيديولوجيا وأزمة الاقتصاد السوداني د. صلاح أحمد الحبو

يرى الكاتب أن أزمة الاقتصاد السوداني ليست نتيجة الحرب وحدها، بل حصيلة اختلالات تاريخية في العلاقة بين الدولة والسوق والمجتمع، أدت إلى تراجع الإنتاج واتساع التفاوت الاقتصادي.

ملخص

يؤكد الكاتب أن معالجة الأزمة تتطلب التوفيق بين الاستقرار الاقتصادي والعدالة الاجتماعية، من خلال إصلاح النظام الضريبي، ومكافحة الاحتكار، ودعم الزراعة والصناعة، وتوسيع الحماية الاجتماعية، وضمان استدامة تمويل الخدمات الأساسية.

تطرح الديمقراطية الاجتماعية بديلاً يتجاوز الصراع بين الليبرالية الجديدة والاشتراكية التقليدية، عبر الجمع بين كفاءة السوق وعدالة التوزيع، وإخضاع السياسات الاقتصادية للمساءلة والمشاركة الديمقراطية.

يخلص إلى أن تعافي السودان لا يتحقق بمجرد استعادة النمو أو الانتصار لأيديولوجيا اقتصادية بعينها، بل ببناء مؤسسات ديمقراطية قادرة على توزيع الفرص والموارد بعدالة، وتحويل السلام إلى تنمية مستدامة.

لم تعد أزمة الاقتصاد السوداني قابلة للتفسير باعتبارها اختلالاً في المؤشرات المالية والنقدية، أو نتيجة مباشرة للحرب وحدها، بل هي حصيلة تاريخية لعلاقة مضطربة بين الدولة والسوق والمجتمع، أعادت إنتاج التفاوت في الثروة والفرص، وأضعفت القاعدة الإنتاجية، وجعلت الاقتصاد أكثر قابلية للانحيار أمام الصدمات. وقد كشفت الحرب هشاشة هذه البنية، لكنها لم تنشئها من العدم. ولذلك، فإن التفكير في السودان ما بعد الحرب يقتضي تجاوز سؤال استعادة الاقتصاد إلى ما كان عليه، نحو سؤال أكثر جذرية: أي اقتصاد نريد، ولصالح من يعمل؟

تقدم الديمقراطية الاجتماعية مدخلاً للإجابة، لا بوصفها حزباً أو أيديولوجياً مكتملة، وإنما باعتبارها مشروعاً لإعادة تنظيم العلاقة بين الإنتاج والتوزيع والسلطة. فهي لا تنفي السوق ولا تقدسها، ولا تلغي الدولة ولا تمنحها تفويضاً مطلقاً، وإنما تسعى إلى إخضاع النشاط الاقتصادي لمؤسسات ديمقراطية تحقق الكفاءة والعدالة والمساءلة. وبهذا المعنى، فإنها تتجاوز الصراع التقليدي بين الليبرالية الجديدة والمدارس الاشتراكية، دون أن تتجاهل التناقضات الاجتماعية التي أنتجت ذلك الصراع.

لقد تعاملت الليبرالية الجديدة، في تطبيقات عديدة، مع تحرير الأسواق وتقليص تدخل الدولة باعتبارهما طريقاً إلى الكفاءة، لكنها كثيراً ما قللت من أثر تفاوت القوة الاقتصادية في تحديد نتائج المنافسة. وفي المقابل، انشغلت اتجاهات اشتراكية تقليدية بتوسيع الملكية العامة وإعادة توزيع الثروة، دون أن تمنح الكفاءة المؤسسية والحوافز الإنتاجية والمساءلة ما تستحقه من اهتمام. والمشكلة في الحالتين ليست في الأدوات ذاتها، بل في تحويلها إلى يقين نظري يتقدم على الواقع، حتى يصبح الاقتصاد مطالباً بإثبات صحة النظرية، بدلاً من أن تكون النظرية أداة لفهم الاقتصاد.

ومن منظور علم الاجتماع الاقتصادي، لا توجد سوق محايدة اجتماعياً؛ فالقدرة على المنافسة تتأثر بملكية الموارد، وإمكانية الوصول إلى التمويل، والتعليم، والمعلومات، وشبكات النفوذ. كذلك لا توجد دولة محايدة بالضرورة، إذ قد تتحول مؤسساتها إلى أدوات لتوزيع الامتيازات وإعادة إنتاج علاقات القوة. وهنا تكتسب الديمقراطية الاجتماعية قيمتها النقدية؛ لأنها لا تكتفي بالسؤال عن حجم تدخل الدولة، بل تبحث في طبيعة هذا التدخل، ومن يوجهه، ومن يستفيد منه، وكيف يخضع للمحاسبة.

وتؤكد دراسة منظمة التعاون الاقتصادي

والتنمية لعام 2024 أهمية الجمع بين «خفض التفاوتات وتعزيز نمو الإنتاجية» [1]، وهو اقتران يحمل دلالة اقتصادية تتجاوز المفاضلة التقليدية بين العدالة والكفاءة. فالتعليم الجيد، وتكافؤ الفرص، وتحسين شروط العمل، والحد من الاحتكار، ليست سياسات اجتماعية منفصلة عن النمو، بل عوامل ترفع قدرة المجتمع على إنتاج الثروة. فالعدالة لا تبدأ عند توزيع الدخل، وإنما عند توزيع الفرص التي تسمح بإنتاجه. غير أن هذا التصور يواجه في السودان اختباراً أكثر تعقيداً، يتمثل في التوفيق بين العدالة الاجتماعية وتوازنات الاقتصاد الكلي. فالإنفاق الاجتماعي الذي لا يستند إلى موارد مستدامة قد يتحول إلى عجز وتضخم، بينما قد يؤدي الانضباط المالي الذي يتجاهل أوضاع المجتمع إلى نقل تكلفة الإصلاح إلى الفئات الأضعف. وهكذا يصبح الفقراء مطالبين بدفع ثمن اختلالات لم يصنعوها، فيما تحتفظ المجموعات الأكثر نفوذاً بقدرتها على حماية مصالحها.

ويقدم صندوق النقد الدولي في مذكرته الصادرة عام 2024 بشأن الإنفاق الاجتماعي إطاراً لفهم هذه العلاقة، إذ يؤكد أهمية الإنفاق على التعليم والصحة والحماية الاجتماعية في دعم النمو الشامل، مع مراعاة كفاءته واستدامة تمويله [2]. لكن القراءة النقدية لهذا التوجه تقتضي التمييز بين الاعتراف المؤسسي بأهمية الحماية الاجتماعية وبين قدرة برامج الإصلاح على حمايتها فعلياً. فالعدالة لا تتحقق بمجرد إدراج مخصصات اجتماعية في الموازنة، وإنما بمدى وصول الخدمات إلى مستحقيها، وبكيفية توزيع الأعباء الضريبية وتكاليف التصحيح الاقتصادي. وتكشف المؤشرات السودانية حجم هذا التحدي. فبحسب تقديرات البنك الدولي، انكمش الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي بنحو 29,4% عام 2023، ثم 14% عام 2024، بينما قُدر نموه بنحو 3,1% في 2025 [3]. وفي المقابل، قُدر بنك التنمية الأفريقي نمو عام 2025 بنحو 1,2% [4]. ولا ينبغي التعامل مع اختلاف التقديرين باعتباره تفصيلاً إحصائياً؛ فهو يكشف صعوبة قياس اقتصاد مزقته الحرب، وتراجعت فيه قدرة المؤسسات على إنتاج البيانات. كما يؤكد أن بناء السياسات على مؤشرات غير مكتملة قد يحوّل التقديرات إلى يقين سياسي زائف.

وتتجلى أزمة التفكير الاقتصادي السوداني بصورة أوضح في الجدل حول سعر الصرف، الذي تحول إلى ما يشبه العقدة المشتركة بين الاقتصاديين، على اختلاف مدارسهم. فبعض

أنصار الليبرالية الجديدة يتعاملون مع تحريره باعتباره مدخلاً ضرورياً لاستعادة التوازن، بينما تميل اتجاهات يسارية واشتراكية إلى التشديد على تدخل الدولة وضبط الأسواق. غير أن المشكلة تبدأ عندما يتحول الدفاع عن أداة معينة إلى بديل عن تحليل الشروط التي تجعلها قابلة للنجاح.

فسعر الصرف ليس رقماً مستقلاً عن الاقتصاد، بل تعبير عن علاقات الإنتاج والتجارة والادخار والاستثمار والتوقعات والثقة المؤسسية. ولا تستطيع سياسة نقدية، مهما بلغت دقتها الفنية، تعويض ضعف الصادرات أو اختلال المالية العامة أو انهيار الإنتاج. كما أن تدخل الدولة لا يصبح فعالاً بمجرد إعلانه، بل بقدرتها على التنفيذ والرقابة وتوفير الموارد. لذلك، فإن المعضلة ليست اختيار سعر بعينه، وإنما بناء اقتصاد يستطيع إنتاج شروط استقراره.

وتكتسب هذه المقاربة أهمية إضافية في ضوء تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ومعهد الدراسات الأمنية الصادر في أبريل 2026، الذي يربط مستقبل السودان بمسارات السلام والإصلاح والاستثمار، ويقدم سيناريوهات تظهر اتساع الفجوة بين استمرار الحرب والتحول نحو التعافي والتنمية [5]. والدرس الأهم أن السلام الاقتصادي لا يتحقق باستعادة معدلات النمو وحدها، بل بإعادة بناء المؤسسات والقدرات الإنتاجية وشروط المشاركة الاجتماعية.

ومن هنا، فإن الديمقراطية الاجتماعية السودانية لا ينبغي أن تُختزل في توسيع الدعم أو زيادة الإنفاق الحكومي، بل في إصلاح البنية التي تنتج الثروة وتوزعها. وهذا يقتضي نظاماً ضريبياً أكثر عدالة، وإزالة الامتيازات الاحتكارية، وتطوير الزراعة والصناعة، وتوسيع التمويل المنتج، وإعادة توزيع الاستثمار والخدمات بين الأقاليم. كما يتطلب حماية اجتماعية مؤسسية لا تقوم على المنح الظرفية، وإنما على حقوق واضحة وموارد قابلة للاستمرار. ويعزز تقرير منظمة العمل الدولية 2024-2026 هذا المنظور بتأكيد أهمية توسيع الحماية الاجتماعية بوصفها أداة لمواجهة الصدمات والحد من الهشاشة [6].

لكن التحول الاقتصادي يظل ناقصاً دون تحول ديمقراطي في إدارة الموارد. فحين تنفصل القرارات الاقتصادية عن المساءلة العامة، تتحول السياسات إلى وسائل لإعادة توزيع النفوذ، لا الثروة. وحين يُختزل المواطن في مستهلك أو متلقٍ للدعم، يفقد موقعه بوصفه شريكاً في الإنتاج وصاحب حق في القرار. ولهذا، فإن الديمقراطية الاجتماعية

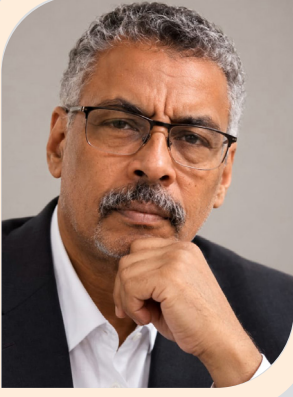
ليست برنامجاً مالياً فحسب، بل إعادة تعريف للعلاقة بين الدولة والمواطن على أساس الحقوق والإنتاج والمشاركة.

إن السودان لا يحتاج إلى انتصار جديد لمدرسة اقتصادية على أخرى، بقدر حاجته إلى التحرر من اليقين الأيديولوجي الذي جعل الأدوات أهم من النتائج، والشعارات أسبق من المؤسسات. فالسوق ليست ضماناً تلقائية للكفاءة، والدولة ليست ضماناً تلقائية للعدالة، والنمو لا يتحول تلقائياً إلى رفاه، كما أن إعادة التوزيع لا تصنع تنمية مستدامة دون إنتاج.

وربما تكمن القيمة الحقيقية للديمقراطية الاجتماعية في قدرتها على تجاوز هذه الثنائيات، وإقامة عقد اقتصادي واجتماعي يجعل الاستقرار الكلي شرطاً للعدالة، والعدالة شرطاً لاستدامة الاستقرار، والإنتاج أساساً لكليهما. فالمستقبل السوداني لن تصنعه الأرقام وحدها، ولا النوايا الاجتماعية المجردة، وإنما مؤسسات قادرة على تحويل الموارد إلى فرص، والحقوق إلى واقع، والسلام إلى تنمية. وعندها فقط يمكن أن يصبح الاقتصاد وسيلة لتحرير الإنسان من الحاجة والتبعية، لا مجرد إدارة أكثر كفاءة لأزماته المتكررة.

المراجع

- [1] Soldani, E., Causa, O., Nguyen, M., & Kozluk, T. (2024). Policy Approaches to Reduce Inequalities While Boosting Productivity Growth. OECD Economics Department Working Papers, No. 1819. OECD Publishing. DOI: 10.1787/af121c8f-en.
- [2] International Monetary Fund. (2024). Operational Guidance Note for IMF Engagement on Social Spending Issues. IMF Policy Paper No. 022/2024, April 30.
- [3] World Bank. (2025). Sudan Economic Update 2025: The Economic and Social Consequences of the Conflict—Charting a Path to Recovery. World Bank.
- [4] African Development Bank. (2026). Country Focus Report 2026—Sudan: Mobilizing Sudan's Development Financing at Scale in a Fragmented World.
- [5] United Nations Development Programme & Institute for Security Studies. (2026). Beyond the Conflict: Charting a Path to Sustainable Growth and Development in Sudan.
- [6] International Labour Organization. (2024). World Social Protection Report 26-2024: Universal Social Protection for Climate Action and a Just Transition.



من التنظيم إلى الدولة الموازية الأنثروبولوجيا الاجتماعية للحركة الإسلامية السودانية

عادل يعقوب أحمد نور

يتناول مقال «من التنظيم إلى الدولة الموازية» لعادل يعقوب أحمد نور، الجذور الاجتماعية للحركة الإسلامية السودانية، وكيف تحوّل التنظيم من إطار سياسي يوفر لأعضائه الهوية والتضامن إلى شبكة من الولاءات والمصالح والروابط الاجتماعية.

ملخص

يشير إلى أن تداخل المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية مع الأجهزة الأمنية والتشكيلات المسلحة أسهم في إضعاف الحدود بين الحزب والدولة، وتحويل بعض الخدمات والفرص والحماية إلى امتيازات مرتبطة بالانتماء وشبكات النفوذ.

يرصد المقال مرحلة ما بعد انقلاب 1989، حين امتدت شبكات التنظيم إلى مؤسسات الدولة والاقتصاد والنقابات والمنظمات المدنية، مع تصاعد نفوذ الولاء التنظيمي على حساب الكفاءة والاستقلال المؤسسي.

يخلص المقال إلى أن إعادة بناء الدولة السودانية لا تقتصر على تغيير القيادات والقوانين، بل تتطلب تفكيك شبكات المصالح المغلقة، وترسيخ المواطنة المتساوية والكفاءة والمساءلة وسيادة القانون، حتى تستعيد المؤسسات العامة استقلالها وثقة المواطنين.

لم يكن صعود الحركة الإسلامية السودانية إلى السلطة مجرد نتيجة لنجاحها في التعبئة السياسية أو قدرتها على استقطاب قطاعات من المجتمع، بل كان أيضاً تعبيراً عن بنية تنظيمية واجتماعية أخذت تتشكل داخل المجتمع السوداني، ثم نجحت، بمرور الوقت، في بناء عالم مواز له، تحكمه شبكة من الولاءات والمصالح والروابط الأيديولوجية والعائلية. تستحق هذه الظاهرة قراءة تتجاوز الخطاب السياسي المباشر، لتبحث في الخلفيات الاجتماعية لأعضاء الحركة الأوائل، وفي الكيفية التي أعاد بها التنظيم تشكيل علاقاتهم بأنفسهم وبالمجتمع والدولة.

لقد تلقى عدد من أبرز المؤسسين والقيادات الإسلامية تعليماً جامعياً في جامعة الخرطوم، واستكمل بعضهم دراساته العليا في جامعات غربية. ومع ذلك، فإن المسار التعليمي الحديث لم يؤد بالضرورة إلى اندماج اجتماعي كامل في البيئة الحضرية التي احتضنتهم. فقد جاء بعضهم من أسر محدودة الموارد، ومن بيئات ريفية أو مدن هامشية، ودخلوا إلى فضاء جامعي واجتماعي تتفاوت فيه المكانة والفرص والامتيازات.

لا يعني ذلك أن الانحدار من الريف أو الفقر يقودان بالضرورة إلى الانغلاق الاجتماعي أو التعصب التنظيمي. فهذه البيئات أنجبت أيضاً شخصيات اتسمت بالانفتاح والتسامح والمشاركة العامة. لكن السؤال الذي يستحق البحث هو: كيف استطاع التنظيم أن يحول بعض الفوارق الاجتماعية والشعور بالتهميش إلى طاقة للتناسك الداخلي، وأن يقدم لأعضائه إطاراً بديلاً للانتماء والمكانة والاعتراف؟

هنا يمكن فهم التنظيم باعتباره أكثر من مجرد جماعة سياسية. إنه شبكة اجتماعية توفر للفرد هوية مشتركة، وتمنحه شعوراً بالتضامن، وتفتح أمامه مسارات للترقي والوصول إلى الموارد والفرص. وفي الوقت الذي تتيح فيه هذه الشبكة لأعضائها قدراً من الحماية المتبادلة، فإنها قد تنتج، عندما تنغلق على نفسها، حدوداً فاصلة بينها وبين المجتمع الأوسع.

تتكون داخل هذه الجماعة منظومة من الالتزامات المتبادلة، ويصبح الدفاع عن العضو جزءاً من الدفاع عن الجماعة نفسها. ومع تراكم الزمن والمصالح المشتركة، قد تتحول هذه الروابط إلى نوع من التضامن المغلق، تكون فيه الأولوية لمن ينتمي إلى التنظيم، لا لمن يستحق

المساندة وفق معايير عامة ومحايدة. وتظهر الخطورة الحقيقية عندما تنتقل هذه البنية من المجال الاجتماعي إلى المجال السياسي، ثم تستولي على مؤسسات الدولة. فبعد انقلاب عام 1989، لم تعد المسألة متعلقة بمشاركة الحركة الإسلامية في الحكم فحسب، وإنما باتت تتصل بإعادة تشكيل مؤسسات الدولة وشبكات توزيع السلطة والثروة والنفوذ. وفي هذا السياق، تبرز أسئلة جوهرية حول التمكين، وإحلال الولاء التنظيمي محل معايير الكفاءة والاستقلال المؤسسي، وتوجيه الموارد العامة لخدمة شبكات سياسية واجتماعية مرتبطة بالسلطة.

لم تكن السيطرة على الدولة تعني، في هذا التصور، احتلال مواقع الحكم وحدها، بل بناء علاقات ممتدة داخل المجتمع نفسه. فقد تداخلت المصالح السياسية والاقتصادية مع بعض مكونات الإدارة الأهلية والطرق الصوفية، ومع النقابات والمنظمات الجماهيرية، كما نشأت أو تعززت أطر مدنية موالية للسلطة، بالتوازي مع توسع الأدوار الأمنية والعسكرية في الحياة العامة.

وكانت هذه الشبكة أكثر تعقيداً من أن تُختزل في أجهزة الدولة الرسمية. فقد جمعت بين التنظيم السياسي، والمصالح الاقتصادية، والعلاقات الاجتماعية، والواجهات المدنية، وأشكال التعبئة الأيديولوجية، إلى جانب الروابط الأسرية والمصاهرات التي يمكن أن تسهم في توطيد الثقة وتبادل المنافع داخل دوائر النفوذ.

وفي مثل هذه البنية، لا تعود العلاقة بين الفرد والدولة علاقة مواطنة متساوية بالضرورة، بل قد تتحول إلى علاقة وساطة: يصل الفرد إلى الفرصة عبر انتمائه، ويحصل على الحماية عبر شبكته، وتُحسم بعض مصالحه من خلال قربه من مراكز القوة. وهكذا تتراجع المؤسسات العامة بوصفها فضاءات محايدة، لتحل محلها شبكات تتفاوت قدرة المواطنين على الوصول إليها بحسب مواقعهم وعلاقاتهم.

أما أخطر التحولات، فتتمثل في عسكرة المجال المدني، من خلال إنشاء تشكيلات ذات طابع عسكري أو أمني خارج الأطر المهنية التقليدية، وتوسيع حضور الأجهزة الأمنية في المجتمع، وإضعاف الحدود الفاصلة بين الحزب والدولة والمؤسسة العسكرية. وفي هذا السياق، ينبغي دراسة تجربة الدفاع الشعبي والشرطة الشعبية، ثم تطور العلاقة بين النظام



أدوات لتوزيع الموارد العامة، واحتكار الفرص، والحصول على الحماية من المساءلة. عند هذه النقطة، تصبح الأزمة أعمق من فساد بعض المسؤولين أو استبداد بعض القيادات. إنها أزمة في معنى الدولة ذاتها، وفي الحدود الفاصلة بين المجال العام والمصلحة الخاصة، وبين المواطنة والانتماء، وبين الالتزام الأخلاقي تجاه المجتمع والطاعة للجماعة. ولعل هذا ما يجعل التجربة السودانية جديرة بدراسة أنثروبولوجية معمقة: كيف تستطيع جماعة سياسية أن تبدأ بوصفها تنظيمًا يسعى إلى تغيير المجتمع، ثم تنتهي إلى إعادة تنظيم المجتمع حول شبكة مصالحها؟ وكيف تتحول أدوات التضامن التي تمنح أعضائها القوة إلى وسائل لإضعاف الثقة العامة، وتقويض المؤسسات، وإعادة إنتاج الامتيازات؟ إن فهم هذه التحولات شرط ضروري لأي مشروع جاد لإعادة بناء الدولة السودانية. فالتغيير لا يكتمل بتبديل الأشخاص أو تعديل القوانين وحدهما، وإنما يتطلب تفكيك البنية التي تجعل الولاء الخاص أقوى من الالتزام العام، وإعادة الاعتبار إلى المواطنة والكفاءة والمساءلة وسيادة القانون. فالدولة لا تنهار فقط عندما تعجز عن حماية مواطنيها، بل تبدأ في فقدان معناها حين تتحول إلى ملكية غير معلنة لشبكات تتعامل مع مواردها ومؤسساتها باعتبارها امتدادًا للتنظيم أو العائلة أو الجماعة.

وتشكيلات الدعم السريع، ضمن تاريخ أوسع لتسييس القوة المسلحة وتعدد مراكزها، مع مراعاة الاختلافات التاريخية والمؤسسية بين هذه التشكيلات.

لقد أفضى تداخل التنظيم السياسي مع أجهزة الدولة ومصادر الثروة وأدوات القوة إلى نشوء منظومة يصعب تفكيكها بمجرد تغيير الحكومة أو إبعاد بعض القيادات. فالشبكات التي تستمد قوتها من المصالح الاقتصادية والروابط الاجتماعية والولاءات التنظيمية تستطيع أن تستمر، بدرجات متفاوتة، حتى عندما تتغير الظروف السياسية التي نشأت في ظلها.

ومن هنا، فإن السؤال الأخلاقي لا يقل أهمية عن السؤال السياسي: ماذا يحدث عندما تصبح الجماعة المرجع الأعلى لتحديد الصواب والخطأ، ويُعاد تفسير الالتزام الأخلاقي وفق مقتضيات الولاء التنظيمي؟

لا يصح الحكم على جميع أعضاء الحركة أو أنصارها باعتبارهم كتلة أخلاقية واحدة، لكن من المشروع تحليل الظروف التي تتيح للتنظيم تقديم مصلحته الخاصة على المصلحة العامة، وتبرير المحاباة أو الإقصاء أو انتهاك القواعد المؤسسية باسم الضرورة السياسية أو حماية المشروع.

فالمشكلة ليست في وجود روابط أسرية أو اجتماعية، ولا في حق الناس في التضامن والتعاون، وإنما في تحويل هذه الروابط إلى



جنوب كردفان.. الجوع والمرض والنزوح تفاقم معاناة السكان

تواجه ولاية جنوب كردفان أزمة إنسانية متفاقمة جراء الحرب والحصار، إذ عانى السكان من الجوع والمرض والنزوح، ووصلت بعض المناطق، بينها كادوقلي، إلى مرحلة المجاعة في نوفمبر 2025.

ملخص

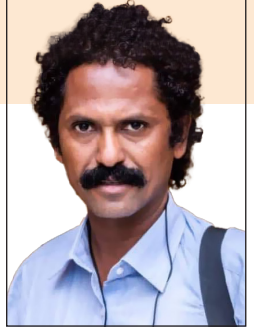
تسببت الحرب في نزوح آلاف السكان وإفراغ مدن وقرى من أهلها، مع توقف الزراعة والإنتاج وشح فرص العمل، وسط مخاوف من تفاقم المجاعة خلال الأشهر المقبلة بسبب فشل الموسم الزراعي.

رغم الفتح الجزئي للطرق، لا تزال الإمدادات الغذائية محدودة ومكلفة بسبب الرسوم العسكرية والمخاطر الأمنية وعمليات النهب، ما يحرم السكان من الحصول على احتياجاتهم الأساسية.

في القطاع الصحي، أغلقت معظم المستشفيات وتراجعت الخدمات مع نقص الأدوية والكوادر الطبية وارتفاع الأسعار، وسط تحذيرات من تفشي الأمراض وعجز السكان عن تحمل تكاليف العلاج.

«جرب السكان أكل أوراق الأشجار وأعلاف الحيوانات، ومات كثير من منهم بسبب الجوع والأمراض».

محمد عبد الباقي



مع اقتراب الحرب من إكمال عامها الرابع، يدفع سكان ولاية جنوب كردفان ثمناً باهظاً وتكلفة عالية جراء تداعياتها على حياتهم اليومية.

فالولاية التي خضعت لحصار خانق فرضته قوات (تأسيس) المكونة من الدعم السريع والحركة الشعبية، انتهى جزئياً في نوفمبر الماضي دون أن يحقق حلم السكان في وضع حد لمعاناتهم مع الجوع والمرض والعطش. وخلال الأعوام الثلاثة الماضية، تعرضت جنوب كردفان لانتهاكات واسعة وحصار مشدد حول حياة السكان إلى جحيم ما زالوا يعانون من ويلات.

وفي نوفمبر 2025، صُنفت عدة مناطق في الولاية، من بينها مدينة كادوقلي، مناطق مجاعة، ما اضطر السكان إلى تناول أوراق الأشجار وأعلاف الحيوانات، بينما لجأ بعضهم إلى حفر بيوت النمل بحثاً عن حبوب الذرة.

وتزامنت أزمة الجوع مع تفشي الكوليرا التي ظهرت للمرة الأولى في الولاية في أغسطس 2024، وظلت تتجدد في مناطق مختلفة كلما انحسرت في مناطق أخرى، وسط انهيار القطاع الصحي وانعدام الأدوية، وتوقف المستشفيات والعيادات الصحية، ونزوح الكوادر الطبية.

وأدى الحصار الذي استمر زهاء العامين إلى إغلاق المعابر والمسارات التجارية وقطع سلاسل الإمداد عن جنوب كردفان، بالتزامن مع موجات نزوح اجتاحت الولاية، حتى خلت عدة مدن من سكانها تماماً، من بينها (الدبيبات) و(هبيلا)، إلى جانب آلاف القرى التي أجبر سكانها على النزوح.

ووفقاً للمعطيات وإفادات النازحين، يعيش آلاف المواطنين من جنوب كردفان حالياً في المخيمات بولاية النيل الأبيض ومدينة الأبيض، حيث يواجهون نقصاً حاداً في الغذاء والرعاية الصحية.

واليوم، أصبحت عملية إدخال المواد الغذائية إلى مدن جنوب كردفان شاقة ومكلفة، وفقاً لناصر، أحد سكان مدينة كادوقلي، الذي روى كيف يحصل العدد القليل من السكان على الغذاء في الولاية التي توقفت فيها وسائل الإنتاج وتقلصت المساحات المزروعة.

وقال ناصر، الذي طلب الإشارة له بالاسم الأول فقط، لـ«أفق جديد»: «منذ اندلاع الحرب في الخرطوم، تحولت جنوب كردفان إلى مسرح خلفي للحرب، مما أدى إلى توقف الإنتاج وتعطل الزراعة وإغلاق سلاسل إمداد المواد الغذائية التي أخذت تتقلص إلى أن انتهت نهائياً في جميع أسواق الولاية، وبدأ السكان يعانون من الجوع والأمراض معاً، وكان العامان 2024 و2025 من أسوأ السنوات التي مرت على المواطنين، ففي هذين العامين جرب السكان أكل أوراق الأشجار وأعلاف الحيوانات، ومات كثير من منهم بسبب الجوع والأمراض».

وأضاف ناصر: «المؤسف هو أن الحياة لم تتغير حتى بعد فتح الطريق بين (كادوقلي) و(الدلنج) ورفع الحصار عن المدينتين، لأن السلع لم تصل بالصورة المطلوبة، وكذلك الأدوية، ومع تدهور الوضع الاقتصادي للمواطنين ازدادت المعاناة، إذ أصبح السكان غير قادرين حتى على توفير احتياجاتهم اليومية من الأكل والشرب، في ظل الغلاء الطاحن وارتفاع الأسعار وعدم توفر أي مصادر للدخل، خاصة مع شح الأمطار وفشل الموسم الزراعي، الذي كان يوفر فرص عمل كثيرة للأيدي العاملة».

وأشار ناصر إلى أن السلع الغذائية، على قلتها، تدخل حالياً إلى جنوب كردفان عبر طرق ملتوية وبصعوبة بالغة، بعضها مروراً بجنوب السودان وسوق النعام في منطقة (أبيي)، مقابل دفع رسوم باهظة عند الارتكازات العسكرية التي تمر عبرها البضائع، والبعض الآخر عبر طريق (هبيلا)، لكن في كل الأحوال، فإن الجبايات التي يحصل عليها في نقاط التفتيش والارتكازات العسكرية تُضاف إلى أسعار المواد الغذائية التي هي في الأساس تفوق القدرة الشرائية للمواطنين.

- «الحياة لم تتغير حتى بعد فتح الطريق بين كادوقلي والدلنج ورفع الحصار عن المدينتين».

- «أصبحت معظم القرى شبه خالية من سكانها، وقد نزح معظمهم إلى داخل الدلنج وكادوقلي».



أما صالح، الذي بدوره نشير إليه باسمه الأول لدواع أمنية، فوصف الأوضاع في جنوب كردفان بالقاسية، وقال لـ«أفق جديد»: «حالياً أصبحت معظم القرى شبه خالية من سكانها، وقد نزح معظمهم إلى داخل الدلنج وكادوقلي، وقد حرمهم النزوح من ممارسة أعمالهم وأنشطتهم وجعلهم غير منتجين، الأمر الذي انعكس على حياة الناس وقدرتهم على توفير

احتياجاتهم الأساسية اليومية». وأوضح صالح أن السلع التي كانت تدخل عبر مناطق سيطرة الحركة الشعبية تقلصت كثيراً، مؤكداً أن الطريق الوحيد الذي تصل عبره البضائع حالياً إلى جنوب كردفان هو طريق (كُرتالة، هبيل، الرهد). وأضاف أن هذا الطريق مهدد بالمسيرات التي تقصف أي حركة تمر عبره، فضلاً عن عمليات

- «هناك مؤشرات على تفشي المجاعة خلال الشهور المقبلة، خاصة الفترة الممتدة حتى يناير القادم».

- «من المتوقع أن تشهد المنطقة خلال الفترة المقبلة حالة جوع قاسية لأن المواد الغذائية شبه منعدمة حالياً».

سكانها الذين فضلوا النزوح على البقاء، فممنهم من نزحوا إلى ولاية النيل الأبيض ومدينة الأبيض والمناطق الآمنة الأخرى، من بينها كادوقلي والدنجلج، وفي أماكن النزوح الجديدة أصبحوا غير قادرين على ممارسة أي نشاط اقتصادي، وهو ما انعكس على حياتهم اليومية.

ووصف أحد المواطنين الذين نزحوا إلى مدينة الدنجلج الأوضاع بالمتدهورة بسبب ارتفاع الأسعار وانعدام فرص العمل أمام النازحين في المدينة.

وقال النازح، الذي طلب عدم الكشف عن هويته لدواع أمنية، لـ«أفق جديد»: «يعيش آلاف المواطنين في أوضاع متدهورة ويتقاسمون الموارد الشحيحة مع السكان، في ظل انعدام فرص العمل في المدينة التي انعدمت فيها سبل الحياة تماماً، ولا يوجد بها وقود ولا وسائل للمواصلات، وقد لجأ السكان إلى استخدام الدواب في تنقلاتهم اليومية، أما الرعاية الصحية فهي شبه منهاره تماماً».

وتدهورت الخدمات الصحية بصورة أكبر من غيرها من الخدمات، إذ أغلقت معظم المستشفيات الحكومية، فيما تقدم المراكز الصحية التي لا تزال تعمل خدمات متواضعة بسبب ارتفاع أسعار الأدوية وصعوبة الحصول عليها.

وقال طبيب يعمل في مدينة الدنجلج لـ«أفق جديد»: «تكاد المستشفيات الحكومية تكون شبه مغلقة في جميع مدن الولاية، والخدمات الصحية المقدمة حالياً شحيحة ومتواضعة للغاية، بسبب الارتفاع الكبير في أسعار الأدوية، وعلى سبيل المثال، تضاعف سعر جرعة علاج الملاريا ست مرات، إذ ارتفع من ألفي جنيه إلى 12 ألف جنيه».

وأشار المصدر الطبي إلى خطورة الأوضاع الصحية، محذراً من تفشي الأمراض خلال المرحلة المقبلة، في ظل ضعف الخدمات الصحية، وقلة الكوادر الطبية وعجز المواطنين عن شراء الأدوية ومقابلة الأطباء بسبب تدهور أوضاعهم الاقتصادية.

التهب التي تحدث عليه من قبل العصابات المسلحة التي تستغل حالة الهشاشة الأمنية وتعتمد على القوافل، وتأمين وصولها يضطر التجار إلى استخدام طوف عسكري، وهو يزيد تكلفة البضائع ويخلق تهديداً أمنياً باعتبار أن أي تحرك لرتل عسكري يصبح هدفاً للمسيرات.

وختم صالح بالإشارة إلى أن تعقيدات تحريك الشاحنات ضمن الأطواف العسكرية تؤدي في كثير من الأحيان إلى توقف إيصال السلع إلى المنطقة لفترات طويلة، ما يتسبب في أزمات وندرة غذائية قاسية للسكان.

وتضررت مناطق عدة في جنوب كردفان بعد أن أصبحت خالية من سكانها بسبب المخاطر الأمنية وانعدام الخدمات، من بينها هبلا والقرى المجاورة لها مثل (فويو والزلطاية)، وقرى أخرى هجرها سكانها بعد كثرت التهديدات الأمنية، مما تسبب في توقف كثير من سبل الإنتاج ودفع السكان إلى العيش في ظل انعدام الأمن الغذائي.

من جهته، تحدث سليمان داوود، أحد سكان مدينة الدنجلج، وهو لاجئ حالياً في أوغندا، عن المخاطر المعيشية المتوقعة خلال الفترة المقبلة في ولاية جنوب كردفان.

وقال داوود لـ«أفق جديد»: «تعتمد معظم مناطق جنوب كردفان بصورة أساسية على الزراعة، لكن لم تُزرع هذا العام أي مناطق مهمة بسبب الهشاشة الأمنية وانعدام الوقود وعدم توفر التقاوي، ومن المتوقع أن تشهد المنطقة خلال الفترة المقبلة حالة جوع قاسية لأن المواد الغذائية شبه منعدمة حالياً، ويحصل السكان عليها بصعوبة بالغة».

وأضاف داوود: «هناك مؤشرات على تفشي المجاعة خلال الشهور المقبلة، خاصة الفترة الممتدة حتى يناير القادم، وقد كانت هذه الفترة في السنوات الماضية تمثل موسم الحصاد، لكن في هذا العام، وبسبب عدم وجود زراعة، يُتوقع أن يتعرض المواطنون الذين ما زالوا في كادوقلي والدنجلج للمجاعة لا محالة».

وزاد عدد القرى والمناطق التي خلت من

- «تكاد المستشفيات الحكومية تكون شبه مغلقة في جميع مدن الولاية، والخدمات الصحية المقدمة حالياً شحيحة ومتواضعة للغاية».



النهود.. الدعم السريع يغلق شريان حياة الناس

أدى إغلاق سوق مدينة النهود بولاية غرب كردفان، وفق غرفة طوارئ دار حمر، إلى شلل الحركة التجارية والاقتصادية، وسط مخاوف من تفاقم الأوضاع الإنسانية والمعيشية للسكان.

ملخص

ويقول عاملون وتجار لـ«أفق جديد» إن الإغلاق فاقم معاناتهم اليومية. حذر العامل أحمد الفكي من العجز عن توفير الغذاء، فيما أعرب التاجر التيجاني بخيت عن مخاوفه من اتساع الخسائر الاقتصادية والمعيشية.

قالت الغرفة إن قوات الدعم السريع أغلقت السوق بالكامل، ما حرم التجار والعمال وأصحاب المهن الصغيرة من مصادر رزقهم، وضيّق فرص حصول الأسر على السلع الأساسية.

من جانبها، قالت أمانة حسن، وهي أم لخمس أطفال، إن الإغلاق يهدد قدرة أسرتها على توفير الغذاء والاحتياجات الأساسية، محذرة من أن استمرار الأزمة سيضاعف معاناة المدنيين في مدينة أنهكتها الحرب.

الأسواق مجرد مرافق اقتصادية يمكن الاستغناء عنها مؤقتاً؛ فهي جزء من شبكة البقاء التي تعتمد عليها الأسر، خصوصاً تلك التي فقدت وظائفها أو تراجعت دخولها أو استنزفت مدخراتها في النزوح وتكاليف المعيشة. ومع الإغلاق الكامل، تتعطل حلقة أساسية من هذه الشبكة. فالتاجر الذي لا يستطيع فتح متجره قد يعجز عن الوفاء بالتزاماته، والعامل الذي يعتمد على الحركة اليومية داخل السوق يفقد مصدر دخله، والمواطن الذي يحتاج إلى شراء الطعام يجد نفسه أمام خيارات أكثر ضيقاً، لا سيما إذا لم تتوافر منافذ بديلة قريبة أو آمنة. ولا تتوقف التداعيات عند السلع المعروضة للبيع؛ إذ يمكن أن تمتد إلى حركة النقل والتوزيع والتخزين، وإلى أصحاب العربات والحمالين والباعة المتجولين وسائر المهن التي ترتبط بحركة السوق. وكلما طال الإغلاق، ازدادت احتمالات تراكم الخسائر وتآكل قدرة الأسر على الصمود.

بالنسبة إلى أصحاب الأعمال الصغيرة والعمال الذين يعتمدون على ما يكسبونه في نهاية اليوم، فإن توقف السوق لا يعني فقط ضياع فرصة تجارية، بل قد يعني فقدان ثمن وجبة الأسرة أو تعذر شراء احتياجات الأطفال. وتزداد هشاشة هذه الفئات في ظل الحرب، حيث تتراجع فرص العمل المنتظم، وتتناقص المدخرات، وتصبح القدرة على مواجهة الطوارئ محدودة للغاية. فالأسرة التي تعيش على دخل يومي لا تملك بالضرورة احتياطياً مالياً يسمح لها بتجاوز أيام من التوقف، ولا تستطيع تأجيل احتياجات الغذاء والدواء إلى أجل غير معلوم. ويقول أحمد الفكي، وهو عامل في سوق النهود، إن إغلاق السوق انعكس سلبيًا على حياتهم اليومية، وحرمتهم من مصدر رزقهم، وأصبحوا عاجزين عن تأمين احتياجاتهم الأساسية من الغذاء. ويضيف لـ «أفق جديد» أن غياب البدائل الآمنة يزيد من صعوبة الأوضاع، معرباً عن مخاوفه من تفاقم معاناة الأسر إذا استمر الإغلاق لفترة طويلة، ومتسائلاً: «كيف سنتدبر أمورنا إذا استمر إغلاق السوق، ولم نعد

لم يكن سوق النهود مجرد مساحة للبيع والشراء، أو صفوفاً من المتاجر التي تفتح أبوابها مع انبلاج الصباح وتغلقها عند المساء؛ كان شرياناً تتدفق عبره احتياجات المدينة اليومية، ومصدر رزق لعائلات لا تملك سوى ما تجنيه من بيع السلع أو ممارسة الأعمال الصغيرة. هناك، حيث يلتقي التجار بالمزارعين، والباعة بالمشتريين، والعمال بأصحاب المهن، كانت تفاصيل الحياة تستمد قدرتها على الاستمرار، رغم الحرب وما خلفته من خوف وفقدان للنزوح والاستقرار.

لكن ذلك الشريان بات مهدداً بالتوقف الكامل. ففي مدينة النهود بولاية غرب كردفان، أدى إغلاق السوق بصورة كاملة، وفقاً لما أعلنته غرفة طوارئ دار حمر، وهي كيان أهلي، إلى شلل الحركة التجارية والاقتصادية. عن قي خطوة تثير مخاوف من اتساع دائرة المعاناة بين السكان الذين يعتمدون على السوق لتأمين احتياجاتهم الأساسية وتوفير مصادر دخلهم المحدودة.

وبينما قد يبدو إغلاق السوق إجراءً يتعلق بحركة البيع والشراء، فإن أثره يتجاوز أبواب المتاجر المغلقة إلى موائد الأسر، وأدوية المرضى، واحتياجات الأطفال، وأرزاق العمال والباعة الذين يرتبط دخلهم بما يتحرك داخل السوق من بضائع وأموال.

قالت غرفة طوارئ دار حمر إن قوات الدعم السريع أغلقت سوق النهود بالكامل، معتبرة أن الإجراء يضيق الخناق على المدنيين ويضاعف معاناتهم الإنسانية والمعيشية، ويحرمهم من الحصول على السلع الضرورية وأبسط مقومات الحياة.

ويضع هذا التطور سكان المدينة أمام أسئلة يومية ملحة: كيف تحصل الأسر على الغذاء إذا تعطلت منافذ البيع؟ ومن أين يأتي العمال وأصحاب المهن الصغيرة بالدخل الذي يشترون به احتياجاتهم؟ وكيف تتصرف العائلات التي لا تملك مدخرات تكفيها لمواجهة أيام إضافية من انقطاع مصادر الرزق؟ في البيئات التي أنهكتها الحرب، لا تكون

«فقدان الطعام يعني الموت البطيء لأطفالنا، خاصة في ظل حرب قضت على الأخضر واليابس في منطقتنا». — آمنة حسن

«كيف سنتدبر أمورنا إذا استمر إغلاق السوق، ولم نعد قادرين على توفير قوت يومنا؟» – أحمد الفكي



كيف نتجاوزها؟

إن إغلاق سوق مدينة تعيش تحت وطأة الحرب لا يمكن النظر إليه بمعزل عن أثره على المدنيين، خصوصاً عندما يكون السوق منفذاً رئيسياً لتأمين الغذاء ومصدراً أساسياً للدخل اليومي. وفي مثل هذه الظروف، ينبغي أن تكون حماية السكان وسبل عيشهم، وضمان وصولهم إلى احتياجاتهم الأساسية، في صدارة الأولويات. فخلف كل متجر مغلق صاحب رزق ينتظر، وخلف كل عامل متوقف أسرة تحسب ما تبقى لديها، وخلف كل رف لا تصل إليه البضائع احتمال بأن تصبح الاحتياجات اليومية أكثر صعوبة.

في النهود، لا تُقاس خسارة السوق بما توقف من بيع وشراء وحده، بل بما يمكن أن يخسره الناس من قدرتهم على مواصلة الحياة. فحين تُغلق أبواب التجارة في وجه مدينة أنهكتها الحرب، لا يبقى السؤال كم خسر التجار، بل كم يوماً تستطيع الأسر أن تصمد قبل أن يتحول تعطل السوق إلى أزمة تمس غذاءها ودواءها وحققها في حياة لا تختزل في انتظار الفرج.

قادرين على توفير قوت يومنا؟

أما أصحاب المتاجر، فتتعلق مخاوفهم المحتملة بتعطيل البيع، واحتمال تلف السلع سريعة الفساد، والالتزامات المالية المتراكمة، وعدم القدرة على معرفة موعد استئناف النشاط التجاري.

ويرى التاجر التيجاني بخيت في حديثه لـ«أفق جديد»، أن إغلاق السوق أدى إلى شلل الحركة التجارية والاقتصادية في المدينة، ما أثار مخاوف من اتساع دائرة المعاناة الإنسانية والمعيشية بين السكان، الذين يعتمد كثيرون منهم على السوق في تأمين احتياجاتهم الأساسية وتوفير مصادر دخلهم المحدودة.

وتقول أمينة حسن، وهي أم لخمسة أطفال لـ«أفق جديد»، إن إغلاق السوق يهدد قدرتها على توفير الغذاء والاحتياجات الأساسية لأسرتها، مشيرة إلى أن أوضاعهم المعيشية باتت بالغة الصعوبة جراء الحرب. وتضيف بحسرة: «فقدان الطعام يعني الموت البطيء لأطفالنا، خاصة في ظل حرب قضت على الأخضر واليابس في منطقتنا، وتركنا نواجه ظروفًا معيشية قاسية لا نعرف

«إغلاق السوق لا يعني فقط ضياع فرصة تجارية، بل قد يعني فقدان ثمن وجبة الأسرة أو تعذر شراء احتياجات الأطفال».



«الحريق» في عالم الحكومة الموازي

ملخص

أثار ظهور قائد الجيش السوداني عبد الفتاح البرهان في مقطع فيديو وهو يلعب «الكوتشينة» مع عدد من الضباط والجنود انتقادات واسعة، عكست غضباً من الفجوة بين قيادة البلاد وواقع الحرب والمعاناة اليومية. ورغم توضيح الجيش أن المقطع قديم، فإن الجدل تجاوز توقيته إلى التساؤل عن علاقة السلطة بأوجاع السودانيّين.

زادت المفارقة مع تغريدة إدريس التي عبّر فيها عن قلقه إزاء الحالة الصحية للبابا ليو الرابع عشر، مرحباً بنجاح العملية الجراحية التي أجريت له، ومتمنياً له الشفاء. ولم يكن الاعتراض على التضامن الإنساني، بل على التباين بين الاهتمام بحدث خارج البلاد وضعف الحضور الرسمي إزاء المأساة السودانية المستمرة.

في مشهد آخر، ظهر رئيس الوزراء كامل إدريس، برفقة وزير الإعلام خالد الإعيسر ووزير الداخلية، في تدشين الموقع الإلكتروني لوزارة الإعلام والآثار والسياحة، بينما تتواصل الحرب وتتفاقم الأزمات الإنسانية والأمنية. وبدأ النشاط الرسمي، وفق قراءة المقال، بعيداً عن حجم التحديات التي تنتظر الحكومة مواجهتها.

يرى أن هذه الوقائع، من فيديو البرهان إلى أنشطة الحكومة وتغريدة رئيس الوزراء، تكشف اتساع الفجوة بين السلطة والواقع، وتطرح تساؤلات عن أولوياتها وقدرتها على الاستجابة لاحتياجات المواطنين. ففي بلد أنهكته الحرب، لم تعد الأنشطة والبيانات الرسمية كافية ما لم تتصل مباشرة بمعاناة الناس وتطلعاتهم إلى الأمن والاستقرار.



أفق جديد

منتصف الأسبوع الماضي ظهر قائد الجيش الفريق أول عبد الفتاح البرهان بكامل هذامه العسكري، وهو يشارك عدداً من الضباط والجنود لعب «الكوتشينة». وبينما أثار الفيديو انتقادات واسعة، لم يكن الجدل حوله منفصلاً عن الأوضاع السيئة التي تجري في البلاد وتآكل سيادتها.

وبدا ظهور قائد الدولة في مشهد اللعب، كما قرأه منتقدوه، صورة لسلطة تعيش في معزل عن الواقع المرير والحرب المستعرة. وهكذا تحول الفيديو إلى أكثر من مجرد مقطع متداول؛ صار عنواناً لسؤال أوسع عن علاقة القيادة بمآسي البلاد، وعن الفجوة بين ما ينتظره المواطنون من الدولة وما يرونه في سلوك مسؤوليها.

وعقب اتساع دائرة الانتقادات، خرج مسؤول الصفحات الرسمية للقوات المسلحة، العقيد مهندس عماد الدين عوض بشير، بتوضيح أكد أن مقطع الفيديو قديم، ويعود إلى فترة سابقة بعيدة، وأن بعض الأشخاص الذين ظهروا برفقة البرهان غادروا مواقعهم منذ زمن. كما أشار الجيش إلى أن إعادة ترويح المقطع في هذا التوقيت الحرج تهدف إلى تضليل الرأي العام وإرسال رسائل سلبية بشأن تعاطي مجلس السيادة مع الأحداث الراهنة.

غير أن توضيح الجيش، حتى مع تأكيده أن الفيديو قديم، لم يبدد جوهر الأزمة التي كشفها تداوله؛ فالسؤال لم يعد متعلقاً بتاريخ المقطع وحده، بل بما جعل صورة كهذه قادرة على إثارة كل هذا الغضب في لحظة فاجعة. إن اتساع الانتقادات يعكس، في جانب منه، تراكم شعور بأن السلطة الواقعية لا تقدم للسودانيين ما يتناسب مع حجم ما يعيشونه، وأن الفجوة بين خطابها ومشهد الحياة اليومية باتت أكثر وضوحاً من أن يغلقها بيان أو توضيح.

وفي الوقت الذي كانت فيه مآسي البلاد تتصدر المشهد، ظهر رئيس الوزراء المعين بواسطة الفريق البرهان، كامل إدريس، برفقة وزير الإعلام خالد الإعيسر ووزير الداخلية، في منشط تدشين الموقع الرسمي لوزارة الإعلام والآثار والسياحة. وبدأ المشهد امتداداً للتناقض ذاته: حكومة ذروة نشاطها الرسمي أن تدشن منصات، فيما ينتظر السودانيون إجابات واقعهم الذي تصوغه الحرب لمدة أربع سنوات. ولم يكن تدشين موقع إلكتروني سوى تفصيل آخر في صورة عالم السلطة الموازي. ففي العالم الموازي نفسه طالع الناس تغريدة لرئيس

الوزراء كامل إدريس، وهو يتجاوز كل أحداث الموت السوداني المستمر وتآكل السيادة ليعرب في تغريدته عن بالغ قلقه إزاء الأنباء المتعلقة بالحالة الصحية لقداسة البابا ليو الرابع عشر، وعن ارتياحه لنجاح العملية الجراحية التي أجريت لقداسته. وباسم حكومة السودان، تقدم إدريس بأصدق التمنيات بالشفاء العاجل والتام، سائلاً الله أن يمن على البابا بالقوة والعافية، وأن يديم عليه نعمه وبركاته.

هنا تتضح المفارقة التي تجمع هذه الوقائع، وتمنحها معناها الأعمق. فالقضية ليست في التضامن الإنساني مع البابا، ولا في التمنيات له بالشفاء، بل في التباين بين المسافة التي قطعها رئيس الوزراء للتعبير عن قلقه تجاه حدث بعيد، والمسافة التي تفصل الحكومة عن أوجاع مواطنيها في الداخل. لقد بدا أن السلطة قادرة على الالتفات إلى ما وراء حدود البلاد، من دون أن تمنح الفاجعة التي يعيشها السودانيون ما تستحقه من اهتمام ووضوح. إن هذه المشاهد والجدل حول فيديو البرهان وفي يده الكوتشينة، وصولاً إلى تدشين الموقع الإلكتروني وتغريدة كامل إدريس، لا تبدو وقائع متفرقة بقدر ما تتجمع في اتجاه واحد: اتساع الفجوة بين السلطة والواقع الذي تحكمه. فكل واقعة تضع السؤال نفسه أمام السودانيين: أين الدولة حين يحتاج إليها مواطنوها؟ وما قيمة بياناتها وأنشطتها الرسمية؟

في بلد تعيش حكومته الحرب وتناقضاتها، يصبح الحديث عن عالم مواز للسلطة أكثر من كونه استعارة صحفية؛ إنه وصف لفجوة تكشفها الوقائع على الأرض: مشاهد المسؤولين وهم يمضون في أنشطتهم وتفاعلاتهم بعيداً عن مركز الفاجعة، كلها ترسم صورة حكومة لا تتقاطع أولوياتها بالقدر الكافي مع أولويات مواطنيها



بين خطاب الوطن وتحالف الحرب مناوي.. من زعامة الى الهامش الى مشروع الدولة

حاتم أيوب أبو الحسن

ملخص

يتحرك مني أركو مناوي بين زعامة الهامش ومحاولة تقديم نفسه كفاعل وطني يتبنى وحدة السودان، ورفض تعدد الجيوش والمليشيات، والدعوة إلى حوار شامل بعيداً عن الإقصاء، في ظل أزمة تتجاوز الصراع على السلطة إلى مستقبل الدولة وعلاقة المركز بالأقاليم.

يرى المقال أن الانتقال من قضية الهامش إلى مشروع وطني يتطلب تجاوز المحاصصة إلى المواطنة، وتقديم إجابات واضحة بشأن الحكم بعد الحرب، ومشاركة المدنيين، ومستقبل الحركات المسلحة، وضمانات العدالة والمساءلة والتوزيع العادل للثروة والسلطة.

يواجه مناوي تحدياً في التوفيق بين تحالفه العسكري مع القوات المسلحة وخطابه الداعي إلى بناء دولة وطنية جامعة، وسط مخاوف من إعادة إنتاج الحكم العسكري ومركزية السلطة، أو تحول نهاية الحرب إلى إعادة توزيع للمناصب والنفوذ بين القوى المتحاربة.

يظل مستقبل مناوي مرتبطاً بقدرته على تحويل خطابه إلى ممارسة سياسية، والحفاظ على استقلالية موقفه، وربط إنهاء الحرب بإصلاح مؤسسات الدولة وترسيخ القانون والمساواة، بدلاً من تكريس امتيازات القوى المسلحة وإعادة إنتاج أسباب الصراع.

لم يعد الدور الذي يلعبه مني أركو مناوي في المشهد السوداني قابلاً للقراءة من زاوية تحالفه العسكري وحده، ولا من خلال تصريحاته السياسية المنفصلة عن سياقها. فالرجل يتحرك في مساحة تتقاطع فيها قضية الهامش مع صراع السلطة، وتختلط فيها حسابات الحرب باستحقاقات السلام، بينما يحاول توسيع موقعه من قائد حركة مسلحة وحاكم لإقليم دارفور إلى فاعل سياسي يتحدث بلغة الوطن ومستقبله. تكمن أهمية هذا التحول في أن السودان لم يعد يواجه أزمة سلطة تقليدية يمكن احتواؤها بتسوية بين القوى المتنافسة، بل أزمة دولة تتصل بطبيعة الحكم، واحتكار القوة، وتوزيع الثروة، وعلاقة المركز بالأقاليم. ومن هذه الزاوية، فإن خطاب مناوي حول وحدة السودان، ورفض إنشاء المليشيات، وضرورة قيام جيش وطني واحد، والحوار الشامل بعيداً عن الإقصاء، يلامس أسئلة حقيقية تتجاوز حدود تحالفاته الراهنة. لكن قيمة هذا الخطاب لا تتحدد بما يقوله وحده، وإنما بقدرته على التحول إلى مشروع سياسي يلتزم به في مواجهة الحلفاء والخصوم على السواء.

هنا تظهر المعضلة الأساسية في موقع مناوي. فهو يتحالف عسكرياً مع القوات المسلحة في حرب لا تزال تثير انقساماً واسعاً حول أسبابها ومآلاتها، بينما يسعى في الوقت نفسه إلى تقديم نفسه باعتباره جزءاً من مشروع وطني جامع. وفي حين يرى مؤيدوه أن موقفه ينطلق من ضرورة الحفاظ على وحدة السودان ومواجهة قيام سلطة مسلحة موازية للدولة، يتحفظ آخرون على هذا التحالف خشية أن يؤدي إلى إعادة إنتاج مركزية السلطة والحكم العسكري، أو أن تتحول نهاية الحرب إلى إعادة توزيع للمواقع والنفوذ بين القوى التي شاركت فيها.

ليس هذا التباين تناقضاً حتمياً، فالحروب تفرض تحالفات قد لا تستمر بالضرورة بعد انتهائها. لكن الاختبار الحقيقي يبدأ عندما تتحول التحالفات من وسيلة لمواجهة خطر أني إلى إطار يحدد مستقبل الدولة. فإذا كان مناوي يرفض تعدد الجيوش والمليشيات، فإن موقفه يقتضي أن يشمل كل التشكيلات المسلحة، وأن يقود إلى ترتيبات أمنية تنهي تعدد مراكز القوة، لا أن يقتصر على رفض تشكيلات دون أخرى. وإذا كان يدافع عن سيادة

الدولة، فإن ذلك يستدعي الدفاع عن مؤسسات وطنية مهنية خاضعة للقانون، لا عن موازين القوة التي قد تفرضها ظروف الحرب.

وفي المقابل، لا يمكن تجاهل أن مناوي يحاول توسيع قاعدته السياسية خارج حدود دارفور، مستفيداً من حضوره الإقليمي والدولي ومن قدرته على التواصل مع أطراف متعددة. وهو يدرك، على ما يبدو، أن موقعه في السودان بعد الحرب لن يتحدد فقط بما يمتلكه من قوة أو بما يحتفظ به من تحالفات، بل أيضاً بقدرته على المشاركة في صياغة التسوية السياسية المقبلة. غير أن الحضور الخارجي، مهما اتسع، لا يمنح صاحبه تلقائياً تفويضاً وطنياً؛ فهذا التفويض يتشكل من الداخل، عبر مشروع واضح يستجيب لتطلعات المواطنين، ويعترف بتنوعهم، ويقدم ضمانات عملية لإنهاء التهميش والاستثناء بالسلطة.

ولعل أبرز ما يواجه مناوي أن قضية الهامش التي انطلقت منها حركته لم تعد قضية إقليم واحد، بل أصبحت سؤالاً وطنياً يتعلق بطبيعة الدولة السودانية نفسها. فقد كشفت الحروب المتعاقبة أن اختلال العلاقة بين المركز والأقاليم، وغياب العدالة في توزيع الموارد والسلطة، لا يمكن علاجهما بمجرد إدخال قادة الحركات المسلحة إلى مؤسسات الحكم، أو منح الأقاليم حصصاً في السلطة عبر اتفاقات مؤقتة. فالتسوية الحقيقية تقتضي الانتقال من المحاصصة إلى المواطنة، ومن تمثيل الجماعات المسلحة إلى تمثيل المواطنين، ومن إدارة التنوع باعتباره تهديداً إلى الاعتراف به أساساً لبناء الدولة.

ومن هنا، فإن انتقال مناوي من زعامة الهامش إلى مشروع وطني لا يتحقق بمجرد توسيع خطابه أو تنويع اتصالاته السياسية، بل بقدرته على تقديم إجابات واضحة عن شكل الحكم بعد الحرب، وموقع المدنيين في السلطة، ومستقبل الحركات المسلحة، وضمانات العدالة والمساءلة، وكيفية إعادة توزيع الثروة والسلطة بين الأقاليم. كما يتطلب ذلك استعداداً لقبول التعدد السياسي والاجتماعي، حتى عندما يختلف أصحاب هذا التعدد مع خياراته وتحالفاته.

إن السودان المقبل لن يستقر بمجرد انتصار طرف عسكري أو التوصل إلى اتفاق يوقف القتال، إذا ظلت الأسباب التي أنتجت الحرب قائمة. فالدولة التي تحتاج إلى السلاح لضمان



فألزامة الوطنية لا تُقاس بمدى القدرة على الحديث باسم السودان، بل بالاستعداد لقبول قواعد مشتركة تحكم الجميع، بمن فيهم الحلفاء. ولا تُختبر في لحظات الاتفاق، بل عندما تتعارض المبادئ المعلنة مع المصالح السياسية والعسكرية.

في النهاية، ليست المسألة ما إذا كان مناوي يريد أن يكون زعيماً وطنياً، وإنما ما إذا كان مستعداً لتحويل هذا الطموح إلى مشروع دولة لا تمنح الأفضلية لمن حمل السلاح، ولا تعيد إنتاج التهميش تحت مسميات جديدة، ولا تجعل مستقبل السودان رهينة لتحالفات الحرب. فالسودان الذي يتسع للجميع لن يُبنى بإضافة قوة جديدة إلى موازين القوة القديمة، بل بتغيير القواعد التي جعلت السلطة والثروة والاعتراف حقوقاً متنازعةً عليها، بدلاً من أن تكون حقوقاً متساوية لكل مواطن.

توازن مكوناتها ستظل معرضة لجولة جديدة من الصراع، بينما الدولة التي تستند إلى المواطنة والقانون والمؤسسات تستطيع تحويل التنافس السياسي من مواجهة مسلحة إلى صراع سلمي على البرامج والشرعية الشعبية. لذلك، فإن مستقبل مناوي يتوقف على قدرته على حسم العلاقة بين تحالفه الراهن ومشروعه الوطني المعلن. فإذا استطاع الحفاظ على استقلالية موقفه، وربط نهاية الحرب بإصلاح مؤسسات الدولة، ورفض الامتيازات الدائمة للقوى المسلحة، فقد يصبح أحد الفاعلين في تأسيس تسوية وطنية أوسع. أما إذا ظل خطابه يتقدم على ممارسته، وبقي مشروعه محكوماً بتوازنات التحالفات القائمة، فقد يجد نفسه أمام فجوة متزايدة بين طموحه في تمثيل الوطن والحدود التي تفرضها عليه حسابات القوة.



تفاقم حالات الطفح الجلدي في أم درمان

تتفاقم حالات الحكة والطفح الجلدي في أم درمان، وسط اشتباه في انتشار الجرب، دون تأكيد طبي لطبيعة المرض، رغم تشابه الأعراض مع حالات ظهرت في شمال دارفور.

ملخص

ودعا خبير الصحة العامة وصحة البيئة عبد الماجد مردس إلى إجراء تقصُّ وبائي ميداني لحصر الحالات وتحديد أسبابها ومناطق انتشارها، محذراً من التشخيص الذاتي واستخدام الأدوية والكريمات دون استشارة طبية.

أكدت شبكة أطباء السودان أن التشخيص لا يزال غير محسوم، مع احتمال ارتباط الأعراض بمسببات مختلفة، بينها المياه المستخدمة للشرب أو الاستحمام.

وشدد مردس على ضرورة مراجعة المرافق الصحية عند ظهور الأعراض، مؤكداً أن مكافحة الجرب تتطلب التشخيص الصحيح والعلاج والتقصي الوبائي، إلى جانب تحسين ظروف المياه والسكن والنظافة.

وسط أطفال في شمال دارفور، تبرز الحاجة إلى تقصّ وبائي ميداني يحدد طبيعة الحالات وحجمها وأسبابها، دون افتراض أن الحالتين ناتجتان عن المرض نفسه قبل التحقق الطبي. وأكد أنه لا تتوافر في المعلومات المنشورة التي أمكن التحقق منها بيانات كافية لتحديد الحجم الفعلي للمشكلة أو خريطة انتشارها أو معدل الإصابة في أم درمان.

وعدد مدرس مطلوبات للتدخلات لمعالجة المرض، منها التشخيص والتقصي الوبائي، وحصر الحالات، والتحقق من التشخيص، وتحديد مواقع تجمعها، ورصد المخالطين، واستبعاد الأمراض الجلدية والمعدية الأخرى. وحذر مدرس من التشخيص الذاتي، وقال إنه يجب تحذير المواطنين من تشخيص الجرب اعتماداً على الصور المتداولة أو تشابه الأعراض، كما حذر من استخدام الكريما والأدوية عشوائياً دون استشارة مختص صحي. وقال إن الحكة والطفح الجلدي قد ينتجان عن أمراض مختلفة تتطلب علاجات مختلفة.

وأشار إلى أنه ينبغي مراجعة أقرب مرفق صحي عند ظهور الأعراض، خاصة الحكة الليلية الشديدة أو إصابة عدة أفراد من الأسرة. كما تستدعي الحمى أو القروح المصحوبة بالصدید أو الاحمرار المؤلم تقييماً طبياً سريعاً. ودعا إلى ضرورة معرفة العلامات التي تساعد على الاشتباه المبكر، لكنها لا تغني عن التشخيص الطبي السليم.

وقال إن الجرب مرض قابل للعلاج، لكن نجاح مكافحته لا يتحقق بالدواء وحده، بل يتطلب الجمع بين التشخيص الصحيح والعلاج والتقصي الوبائي وتحسين ظروف المياه والسكن والنظافة.

ويشير الخبير الصحي إلى أن المهنية تقتضي الانتقال من مجرد الإعلان عن وجود الحالات إلى تقديم بيانات موثقة عن حجم المشكلة وتوزيعها وفاعلية الاستجابة، بما يحفظ صحة المواطنين وكرامتهم، ويحول المعلومات الوبائية إلى تدخلات عملية تستجيب للاحتياجات الإنسانية.

شهدت ولاية الخرطوم انتشاراً لحكة وطفح جلدي يشتبه في أنها أعراض لمرض «الجدي». وقالت السلطات الصحية في الخرطوم إن الأعراض تشابه ما انتشر مؤخراً في مناطق ولاية شمال دارفور، لكن التشابه لا يكفي لإثبات وجود حالات جرب في أم درمان التي يتفاقم فيها الطفح الجلدي.

ويشير الأطباء إلى أن العرضين يمثلان المرض نفسه، وأن الطفح الجلدي قد ينتج عن الجرب أو لدغات الحشرات أو التهابات جلدية أو أسباب أخرى.

وقال الناطق الرسمي باسم شبكة أطباء السودان، د. محمد فيصل، إن السلطات الصحية لم تصل حتى الآن إلى تشخيص بخصوص المرض الجلدي الذي انتشر وسط مرضى بأم درمان، وإنه حتى الآن غير معروف تشخيص المرض: هل هو طفح جلدي أم مرض جلدي عادي ناتج عن مسببات مرتبطة بالمياه المستخدمة للاستحمام أو شرب الماء. وقال إن هناك عدداً من التشخيصات المحتملة المرتبطة بالمياه، سواء كانت مستخدمة للشرب أو الاستحمام.

وشدد، في تصريح لـ (أفق جديد)، على أنه حتى الآن ليس هناك تشخيص مؤكد تم التوصل إليه يحدد طبيعة المرض، غير أن فرق وزارة الصحة بذلت جهداً للوصول إلى طبيعة المرض. وقال: «إلا أننا نحن في شبكة أطباء السودان ليست لدينا معلومات مؤكدة عن طبيعة المرض أو الطفح الجلدي حتى الآن، لكن الجهود جارية لمعرفة نتائج التشخيص».

وقال خبير الصحة العامة وصحة البيئة، عبد الماجد مدرس، في تصريح لـ (أفق جديد)، إن الإعلان عن وجود انتشار للجرب في غرب أم درمان يستدعي معرفة عدد الحالات وتوزيعها الجغرافي والعمرى، ومقارنتها بالأسابيع السابقة، وتحديد المخالطين ومواقع تجمع الحالات.

وقال مدرس إنه في ضوء الإعلان عن انتشار الجرب وسط القادمين من مناطق النزاع في غرب أم درمان، والتقارير عن ظهور طفح جلدي

«التشابه لا يكفي لإثبات وجود جرب في أم درمان التي يتفاقم فيها
الطفح الجلدي».

تبرز الحاجة إلى تقصُّ وبائي ميداني يحدد طبيعة الحالات وحجمها وأسبابها، دون افتراض أن الحالتين ناتجتان عن العرض نفسه قبل التحقق الطبي.»



طبيعة الجرب

الجرب إصابة جلدية طفيلية تسببها حشرة مجهرية، وتنتقل أساسًا عن طريق التلامس الجلدي المباشر والمطول، وقد تسهم مشاركة الملابس والمفروشات في انتقالها، خاصة في بعض الحالات الشديدة. ويساعد الاكتظاظ وشح المياه وصعوبة الغسيل والنظافة الشخصية على استمرار انتقال العدوى، لكنها لا تمثل وحدها سبب الإصابة.

العلامات الشائعة للجرب

من أبرز العلامات التي قد تثير الاشتباه في

الإصابة حكة شديدة تزداد عادةً أثناء الليل، وقد تؤثر في النوم.

فضلاً عن ظهور حبوب صغيرة أو طفح جلدي مثير للحكة، مع خدوش ناتجة عن الحك المتكرر، وظهور خطوط رفيعة ومتعرجة تحت سطح الجلد قد تمثل أنفاق الطفيل. وتظهر الآفات غالباً بين أصابع اليدين، وعلى الرسغين، والإبطيين، والخصر والأرداف، بالإضافة إلى ظهور أعراض مشابهة لدى أفراد الأسرة أو المخالطين.

وقد تختلف أماكن الإصابة لدى الرضع والأطفال الصغار، إذ يمكن أن تشمل فروة الرأس وحتى اليدين وأخمص القدمين. كما قد تتأخر الأعراض عدة أسابيع بعد الإصابة الأولى.

«لا تتوافر بيانات كافية لتحديد الحجم الفعلي للمشكلة أو خريطة انتشارها أو معدل الإصابة في أم درمان».



ابتسام السماني تحكي في (أكتوبر الوردي) معركتها مع سرطان الثدي

في رحلة لجوء من نبالا إلى كمبالا، وجدت المحامية والمدافعة عن حقوق الإنسان ابتسام عيسى السماني نفسها أمام معركة جديدة، بعد تشخيص إصابتها بسرطان الثدي في المرحلة الأولى، عقب فرارها من الحرب في السودان مطلع 2024.

ملخص

بين الخوف والألم، استمدت ابتسام قوتها من إيمانها ودعم زوجها وأبنائها وأصدقائها، متمسكة بالأمل في استعادة عافيتها ولم شمل أسرتها، ومؤكدة أن العلاج والرعاية النفسية ليسا رفاهية، خصوصاً للنساء اللاجئات.

بدأت ابتسام رحلة العلاج الكيميائي والجراحة والإشعاع، وسط تكاليف باهظة تجاوزت قدرة أسرتها التي تعيش بلا دخل ثابت، فيما امتد أثر المرض إلى أبنائها، واضطرت طفلتها سبنا إلى تحمل مسؤوليات المنزل ورعاية إخوتها على حساب دراستها.

وفي أكتوبر الوردي، توجه ابتسام رسالة إلى النساء بضرورة الكشف المبكر عن سرطان الثدي وعدم تأخير زيارة الطبيب، مؤكدة أن سماع كلمة السرطان مخيف، لكن الخوف لا ينبغي أن يمنع العلاج أو يطفىء الأمل.

«سماع كلمة السرطان مخيف، لكن الخوف لا ينبغي أن يمنع طلب المساعدة أو بدء العلاج، فالكشف المبكر قد يفتح أبواباً أوسع للتعافي».

كمبالا- سمر سليمان



إبتسام عيسى السمانى

سيرعاهم إذا تدهورت صحتها، لكنها تمسكت بإيمانها وطلبت من أسرتها الدعاء والصبر.

معركة أخرى تضاف إلى اللجوء

بدأت إبتسام العلاج الكيميائي في مستشفى خاص بتكلفة تجاوزت 300 دولار للجرعة ضمن خطة من ست جرعات، ومع غياب مصدر دخل ثابت أصبحت تكاليف العلاج عبئاً كبيراً على الأسرة التي تواجه أيضاً نفقات التعليم والإيجار والمعيشة.

بعد الجرعة الأولى بدأت إجراءات فتح ملف في مستشفى (مولاقو) الحكومي للحصول على علاج أقل تكلفة، لكنها اضطرت إلى تلقي الجرعة الثانية في المستشفى الخاص بسبب بطء الإجراءات، قبل أن تواصل العلاج في المستشفى الحكومي برسوم أقل.

وبعد العلاج الكيميائي خضعت لعملية جراحية، ثم للعلاج الإشعاعي الذي تجاوزت تكلفته ألف دولار، إلى جانب الأدوية الهرمونية المستمرة، وقدمت منظمة (فرونز لاين ديفنדרز) دعماً مالياً مهماً، لكنه لم يغط جميع المراحل،

من (نيالا) إلى (كمبالا) رحلة لجوء انتهت بمواجهة المرض، وأسرّة تتقاسم الألم وإيمان يمنح القوة، ورسالة إلى اللاجئين والنساء: الكشف المبكر لسرطان الثدي مهم، والعلاج لا ينبغي أن يكون رفاهية. في بعض اللحظات لا يأتي الخبر الذي يغير الحياة في صورة صدمة عابرة، بل يفتح باباً طويلاً من الأسئلة والخوف والانتظار. هكذا وجدت إبتسام عيسى السمانى نفسها أمام مواجهة لم تكن تتوقعها، بعد أن لجأت إلى العاصمة الأوغندية كمبالا هرباً من الحرب في السودان، لتبدأ معركة جديدة مع سرطان الثدي وسط أعباء اللجوء وتكاليف العلاج ومسؤوليات الأسرة.

إبتسام محامية ومدافعة عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة، تنحدر من مدينة نيالا بولاية جنوب دارفور، وصلت إلى كمبالا مطلع العام 2024 برفقة زوجها وأبنائها، أملاً في حياة أكثر أمناً، لكن صحتها بدأت تتراجع قبل أن تلاحظ كتلة في ثديها الأيمن وتقرر مراجعة الطبيب.

تغير كل شيء

بعد الفحوصات أخذت عينة من الكتلة في سبتمبر، وعاشت إبتسام أسبوعاً من القلق والرجاء، ثم أبلغها الطبيب بأن النتيجة أظهرت إصابتها بسرطان الثدي في المرحلة الأولى، وشرح لها أهمية العلاج محاولاً منحها القوة من خلال تجارب مريضات تجاوزن المرض. خرجت من غرفة الطبيب لتجد صديقتها رشا سراج في انتظارها، أخبرتها بالخبر، فتعانقتا وبكتا معاً، وفي المستشفى، التقتا بمریضة أخرى تستعد لبدء علاجها، فأدركت إبتسام أنها ليست وحدها.

كان الألم الأكبر في المنزل حين أخبرت بناتها بالحقيقة، فتحول البيت إلى مساحة من الخوف والحزن. انشغلت إبتسام بمصير أبنائها ومن

- «من نيالا إلى كمبالا، لم تنتهِ رحلة اللجوء عند البحث عن الأمان، بل بدأت إبتسام معركة جديدة مع سرطان الثدي، وسط تكاليف العلاج ومسؤوليات الأسرة».

- «غياب مصدر دخل ثابت جعل تكاليف العلاج عبئاً كبيراً على الأسرة، التي تواجه أيضاً نفقات التعليم والإيجار والمعيشة».



دكتور النور سليمان

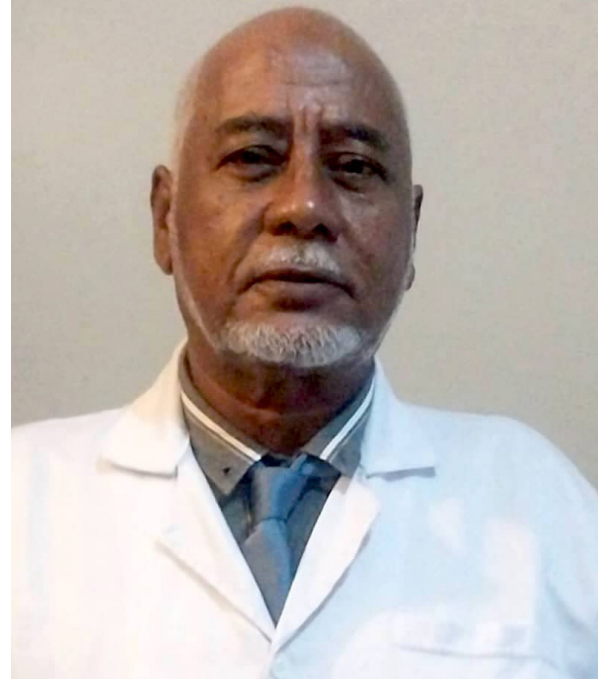
الطبيعية. وتأمل أن تعود سبنا إلى الدراسة وأن تجتمع الأسرة من جديد، فيما تنتظر ابنتها الموجودتان في السودان لمواصلة دراستهما الجامعية تجاوز والدتهما لهذه المرحلة.

الأمل سند في أصعب الأيام

حرصت ابتسام على ألا تسمح للخوف بالسيطرة على أسرتها، واستمدت قوتها من قراءة القرآن والصلاة والدعاء، وشاركت بناتها قيام الليل، كما ساعدها وجود زوجها وأبنائها وأصدقائها على الاستمرار. وتؤكد أنها لم تفقد الأمل يوماً، وأن دعم أهل والأصدقاء والجيران والزملاء في السودان وكمبالا ودول المهجر عبر السؤال والدعاء والمساعدة خفف عنها ثقل المرض ومنحها شعوراً بأنها ليست وحدها.

الكشف المبكر يفتح أبواباً أوسع للعلاج

يؤكد الدكتور فكري صبري، استشاري الجراحة العامة في كمبالا، أهمية الكشف



دكتور صبري فكري

كما ساعد تخفيض حصلت عليه من إدارة المستشفى في مواصلة العلاج، بينما لا تزال الأسرة تتحمل جزءاً من تكلفة الأدوية. وتوضح ابتسام أن رحلة العلاج تشمل الفحوصات والصور والعمليات والإشعاع والأدوية والمتابعة، في وقت لا تمتلك فيه الأسرة دخلاً ثابتاً.

طفلة تحمل مسؤولية البيت

امتد أثر المرض إلى الأسرة كلها، وكانت ابنتها سبنا من أكثر من تحملن تبعاته. فمع تراجع قدرة ابتسام على الحركة تولت سبنا، رغم صغر سنّها، أعمال المنزل ورعاية إخوتها ومتابعة شؤونهم اليومية. أثرت هذه المسؤوليات على دراسة الطفلة، فلم تتمكن من إكمال عامها الدراسي كما ينبغي، كما واجهت صعوبة في مواصلة الدراسة بسبب ملازمتها لوالدتها في المستشفى، وتشعر ابتسام بالامتنان والألم في أن واحد، فهي ترى في ابنتها سنداً كبيراً، لكنها تتمنى ألا تكون ظروف المرض واللجوء قد سلبتها حقها في التعليم والحياة

- «استمدت ابتسام قوتها من قراءة القرآن والصلاة والدعاء، كما منحها دعم زوجها وأبنائها وأصدقائها القدرة على مواصلة رحلة العلاج وعدم الاستسلام».

- «كانت ابنتها سبنا سنداً كبيراً لها، إذ تحملت مسؤوليات المنزل ورعاية إخوتها، لكن ابتسام تتألم لأن ظروف المرض واللجوء أثرت على حق طفلتها في التعليم والحياة الطبيعية.



إبتسام تتمرّج بين الحرب وتداعياتها

الاشتباة في المرض وحتى التعافي، وأن الدعم النفسي والأسري يساعد المرأة على التكيف مع التغيرات والمشاركة في قرارات علاجها. ويشدد على احترام مشاعر المريضة وخصوصيتها، وعدم التقليل من مخاوفها أو تحميلها مسؤولية مرضها، مع مواجهة الوصمة والمعلومات المغلوطة. كما يوصي بمراجعة الطبيب عند ظهور أي تغيرات غير طبيعية، والالتزام بالفحوصات المناسبة، والاستعانة بمختص نفسي عند الحاجة.

أكتوبر الوردى مناسبة للتذكير بعيد أكتوبر الوردى تسليط الضوء على سرطان الثدي وأهمية التوعية بعلاماته، وتشجيع النساء على طلب الرعاية الطبية ومساندة المصابات والناجيات. وتوضح قصة ابتسام أن الوعي لا يكفي ما لم تتوفر خدمات صحية يمكن الوصول إليها، وعلاجات في متناول المريضات، ودعم نفسي واجتماعي، خصوصاً للنساء اللاجئات اللواتي قد يواجهن الفقر والانتظار الطويل ومسؤوليات الأسرة.

لذلك تتجاوز مسؤولية التوعية النساء أنفسهن لتشمل الحكومات والمنظمات والمؤسسات الصحية والمجتمعات، حتى لا يتحول المرض إلى عبء مضاعف بسبب النزوح أو غياب الدعم.

«افحصي مبكراً ولا تفقدي الأمل»

توجه ابتسام رسالتها إلى النساء، مؤكدة أن سماع كلمة السرطان مخيفة، لكن الخوف لا ينبغي أن يمنع طلب المساعدة أو بدء العلاج. وتدعو كل امرأة تلاحظ كتلة أو تغيراً غير معتاد في الثدي إلى مراجعة الطبيب وعدم انتظار زوال الأعراض.

وتحاول مواجهة مخاوفها من عودة المرض أو إصابة بناتها بالتوعية والمتابعة الطبية، متمسكة بالإيمان والعلاج ودعم أسرتها، وتأمل أن تستعيد عافيتها وتعود طفلتها إلى دراستها، وأن تجتمع الأسرة من جديد.

المبكر عن سرطان الثدي، مشيراً إلى أن الخوف والوصمة والظروف الاقتصادية قد تؤخر مراجعة الطبيب.

ويشير إلى أن ظهور كتلة جديدة في الثدي أو تحت الإبط، أو تغيرات في الجلد أو الحلمة، يستدعي الفحص، مع التأكيد على أن وجود كتلة لا يعني بالضرورة الإصابة بالسرطان، وقد يشمل التشخيص الفحص السريري والتصوير وأخذ خزعة عند الحاجة، بينما تختلف خيارات العلاج بحسب نوع المرض ومرحلته، ولا تحتاج كل مريضة إلى استئصال الثدي. ويشدد على الالتزام بالخطة العلاجية وعدم تأخير المراجعة أو الاعتماد على العلاجات البديلة وحدها، مؤكداً أن دعم الأسرة يساعد المريضة على مواجهة العلاج ويخفف شعورها بالعزلة.

الدعم النفسي ليس رفاهية

يوضح الدكتور النور سليمان مصطفى، اختصاصي علم النفس الإكلينيكي، أن سرطان الثدي قد يصاحبه الخوف والقلق والحزن منذ

- «تأمل ابتسام أن تستعيد عافيتها، وأن تعود ابنتها إلى مقاعد الدراسة، وأن تجتمع أسرتها من جديد بعد رحلة قاسية مع المرض واللجوء».



كتاب الشاهد الأول ضد بن لادن: جمال الفضل.. سوداني هز القاعدة

ملخص

يعرض كمال بولاد كتاب الصحفي محمد عبدالعزيز «الشاهد الأول ضد بن لادن: جمال الفضل.. سوداني هز القاعدة»، بوصفه عملاً يجمع بين التحقيق الاستقصائي والسرد الروائي، ويوثق مرحلة مهمة من تاريخ تنظيم القاعدة، في ظل ندرة الكتابات التوثيقية عن تجارب سودانية مؤثرة.

يضيء العمل على علاقة تنظيم القاعدة بنظام الحركة الإسلامية الذي وصل إلى السلطة بانقلاب عام 1989، وكيف استفاد التنظيم من وجوده في السودان لتوسيع أنشطته واستثماراته وشبكاته الإقليمية والدولية.

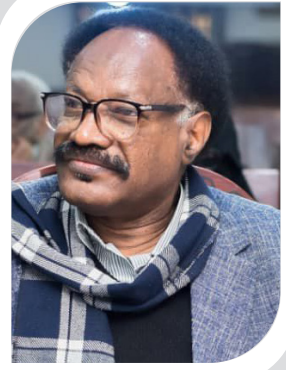
يتتبع الكتاب مسيرة جمال الفضل، أحد المقربين من أسامة بن لادن خلال وجوده في السودان، قبل أن يتحول إلى شاهد رئيسي ضد التنظيم أمام المحاكم الأمريكية، مقدماً تفاصيل عن بنيته التنظيمية وشبكاته وتحولاته.

تكمن أهمية الكتاب في كشف جوانب من تاريخ التطرف العنيف، وطرح أسئلة حول التحولات الفكرية والنفسية داخل التنظيمات المتشددة، ودور السودان في مرحلة مفصلية من تاريخ القاعدة، بما يجعله إضافة مهمة للمكتبة الصحفية والتاريخية السودانية.



القراءة والاستعراض: كمال بولاد

مؤلفه: الصحفي
الأستاذ محمد
عبد العزيز



تجربة هذا الكتاب تستحق الاهتمام؛ لأنها مزيج من البحث الجاد والكتابة الروائية، كما أنها تضيف سفرًا جديدًا إلى كتابات الجاسوسية الشحيحة في المكتبة السودانية، والتي تفتقر إلى توثيق الكثير من التجارب التي أثرت على مجرى تاريخ بلادنا، وطوتها عادة المشافهة الطاغية وسط النخب والمثقفين السودانيين، وتلاشت مع نعوش أبطالها الذين رحلوا.

يضم الكتاب ثلاثة فصول، تقع بين دفتيه 246 صفحة، كُتب على طريقة الرواية في مسيرة سردية شيقة تكاد تنقلك من سير البحث الاستقصائي الجاد في تجربة كبيرة وخطيرة شغلت العالم سنوات، وهي تجربة وتطور وحركية تنظيم القاعدة وقائده أسامة بن لادن، إلى رواية طاف الراوي ما بين فصولها رسمًا وخيالًا وفانتازيا، وأنت في غاية التوتر والتحليق، تهبط على صدمة واقع تحقيقات ضباط المخابرات الأمريكية (CIA) مع عناصر التنظيم الذين وقعوا بين أيديهم، ومنهم بطل الرواية، الشخصية المحورية جمال أحمد الفضل. كل هذا وسط مزيج من الأدب والبحث الاستقصائي الذي أنجزه الكاتب ببراعة وصبر على اكتناز المعلومات ومحاورة مصادرها الشحيحة وشخصها الشرسة، فكان جهدًا بذل لسنوات، احتواه متن هذا الكتاب.

تأتي أهمية عرض الكتاب من كونه بحثًا قيمًا عن تجربة تنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن، حينما قرر الاستقرار وتوطين التنظيم بالسودان، ويمتد البحث إلى عمل وحركة التنظيم آنذاك، إلى مدار حركته الإقليمية والعالمية، كواحد من تجليات ظاهرة الإسلام السياسي وتأثيرها الإقليمي والدولي في العقود الأربعة الأخيرة، ثم إشارته في جوهر البحث للصلة التلقائية التي وُلدت ما بين القاعدة ونظام الحركة الإسلامية السودانية الوليد آنذاك، والذي استولى على السلطة في السودان بانقلاب عسكري في 1989م، واستقبل النظام قادة التنظيم المنتظر، وعلى رأسهم الزعيم أسامة بن لادن، في السودان، وفتح

لهم البلاد وسهّل لهم المشاريع والشركات الاستثمارية، رغم التكتيكات التي اتبعتها الحركة الإسلامية آنذاك بمحاولة خداع السودانيين، ومحاولات نفي صلة الانقلابيين بها، ثم الظهور على طريقة فقه الضرورة بغير حقيقتهم، نتيجة حرصهم على السلطة والتمسك بمكتسباتها، وإظهار عدم التقاطع مع بنية المجتمع السوداني المتسامح، والحفاظ على صورة السودان الإقليمية والدولية كما هي، حتى تتم، وفقا لنهجهم المتطرف، مرمطتها لاحقًا، لدرجة أصبح في عهدهم مجرد جواز السفر السوداني في المطارات الدولية تهمة. وركز الكاتب في بحثه الاستقصائي على كيفية إنشاء هذا التنظيم وحركته وتطوره وبنيته التنظيمية الدقيقة وفتاويه، كل ذلك عبر الشخصية المحورية للبحث، وهو جمال الفضل، باعتباره من أكثر الشخصيات إثارة للجدل في تاريخ تنظيم القاعدة، عندما كان أحد أعضائها، وحتى بعد أن أصبح الشاهد الأول ضد قاداتها في قاعات المحاكم الأمريكية، ويستبين ذلك من خلال الملفات الأخيرة للمحاكمات التي نُصبت لبعض أهم عناصر التنظيم، وفي ظل مرحلة شديدة الحساسية في تطور الحركة العابرة للحدود والأوطان، وحتى بعد تصفية زعيمها وقائدها ابن لادن. فالكتاب لا يكتفي بسرد سيرة جمال الفضل، وإنما يتخذ من تجربته مدخلًا لفهم التحولات التي مر بها تنظيم القاعدة، وعلاقته بالسودان، والصراعات الداخلية التي أحاطت بالتنظيم وقياداته.

الشاهد الأول ضد بن لادن



بمجرد أن بدأت السلطات الأمريكية في التحقيق مع جمال الفضل اكتشفت أنها حصلت على جوهرة، فبعد أن أعطى صورة كاملة عن تنظيم القاعدة، وأوقع بعض عناصره، قدم مساعدات أخرى كان أبرزها شهادته التي أكملت عريضة الاتهام ضد أسامة بن لادن، وبالتالي أصبحت اعترافاته وحياته المحور الذي تقوم عليه القضية، ودفع هذا أجهزة الاستخبارات الأمريكية لاعتباره أهم مصدر معلومات في الحرب على الإرهاب، لذلك جعلت له وضعاً خاصاً ضمن برنامج حماية الشهود الأمريكي حيث بات يعرف بأنه المصدر السري رقم واحد (C-5-1).

منشورات
عندليب



دون تردد الآخرين من بني جلدته وغيرها من الأسئلة.

فتاريخ التطرف عمومًا، أو الخيانة للرفاق أو الوفاء والإخلاص للمبادئ، أيًا كانت مرجعيتها الإيمانية والفكرية، أكثر تعقيدًا من رواية شخصية واحدة، كما أن ظاهرة التطرف العنيف لا يمكن تفسيرها فقط من خلال الأشخاص والتنظيمات، بل تحتاج إلى دراسة السياقات السياسية والاجتماعية والفكرية التي أنتجتها. ومع ذلك، يمثل الكتاب إضافة مهمة للكتابة الصحفية السودانية؛ لأنه يجمع بين التحقيق الصحفي والسيرة السياسية والتاريخ المعاصر لتنظيم القاعدة، ويعيد فتح ملف بالغ الحساسية يتعلق بدور السودان في التحولات الإقليمية والدولية خلال تسعينيات القرن الماضي. دون شك، تجربة القاعدة وقائدها في السودان كان لها تأثير هام على الصعيد الأفريقي والعربي والعالمي، نتيجة سيطرة الحركة الإسلامية على السلطة من زاوية، وموقع السودان الجيوسياسي في المنطقة من زاوية أخرى.

في المحصلة، فإن «الشاهد الأول ضد بن لادن» ليس مجرد قصة عن جمال الفضل، ولا مجرد حكاية عن القاعدة وأسامة بن لادن، بل هو محاولة لقراءة مرحلة مفصلية من تاريخ السودان والمنطقة من خلال مسار رجل وجد نفسه في قلب واحدة من أخطر التجارب السياسية والأمنية في العصر الحديث. الخلاصة...

تبقى القيمة الأهم للكتاب في قدرته على جمع معلومات هامة حول نشأة تنظيم القاعدة في السودان ودوره من خلال مشاركة عضويته في حرب أفغانستان، والطريقة التي كان يتحرك فيها التنظيم ما بين باكستان وأفغانستان والسودان، ومنهم إلى الغرب فيما بعد. ثم استبان الكتاب إشارات عابرة عن صلة التنظيمات الجهادية بأمريكا، وتحديدًا في مرحلة قتال الروس في كابل، وفيما بعد بناء تنظيماتها في الغرب، وطريقة التجنيد وتنوعه والتدريب وجمع المال والمساحات التي كان يعمل فيها التنظيم للتدريب والتخطيط وتراكم الأموال وإدارة الشركات والاستفادة من زخم سلطة الحركة الإسلامية في السودان وتداخله مع الأجهزة الأمنية، ثم كيف نصبت له المخابرات الأمريكية الحيل وأوقعت بعض كوادره، والتي من خلال معلوماتها عملت على تصفية التنظيم وإضعافه.

فقد كان جمال من المقربين لأسامة بن لادن خلال سنواته في السودان، ثم أصبح لاحقًا من أبرز الشهود الذين قدموا معلومات للسلطات الأمريكية حول تنظيم القاعدة وقيادته وشبكاته. ومن هنا جاء وصفه بأنه الشاهد الأول لدى المخابرات الأمريكية، إذ شكّلت شهادته إحدى الحلقات المهمة في بناء الصورة القانونية والأمنية عن التنظيم في مرحلة سبقت هجمات الحادي عشر من سبتمبر. ومن خلال تتبع مسار الفضل، يفتح الكتاب نافذة على السودان في تسعينيات القرن الماضي، حين تحوّل إلى محطة مهمة في تاريخ الحركات الإسلامية الدولية، وعلى العلاقات المعقدة التي نشأت بين بن لادن وبعض دوائر الإسلاميين السودانيين. كما يضيء الكتاب على الانتقال من مرحلة العمل الدعوي والتنظيمي إلى مرحلة أكثر عنفًا وعالمية في نشاط القاعدة.

لكن قيمة الكتاب لا تتوقف على المعلومات التي يقدمها، بل تمتد إلى الأسئلة التي يثيرها. فشخصية جمال الفضل كانت جزءًا من البيئة التنظيمية، ثم انقلبت عليها. ولذلك فإن شهادته تطرح عدة أسئلة حول البناء النفسي الذي يصنعه التنظيم: كيف لشخص ما وضع روحه وحياته أمام الأمير ليختار له تاريخ وفاته، أن ينقلب في لحظة ما إلى شاهد ضد رفاقه؟ وما الأسباب؟ وكيف يتحول الشخص من إنسان مدني محب للحياة وفاعل في مجتمعه وأنشطته الرياضية والفنية إلى متطرف تستوي عنده الحياة والموت، بل يقتل



فخ الجيوش البديلة عندما يزرع السودان بذور تفكيكه.... يوسف الغوث

يحذر المقال من أن خطر السودان لا يقتصر على استمرار الحرب، بل يمتد إلى تفكك الدولة نتيجة تعدد القوى المسلحة وتنافسها على السلطة والنفوذ، مستشهداً بتجربة قوات الدعم السريع.

ملخص

يؤكد أن معالجة التهميش والمظالم التاريخية لا تكون بإنشاء جيوش موازية، بل بإصلاح سياسي يضمن العدالة في توزيع السلطة والثروة، ومعالجة تحديات الترتيبات الأمنية، بعيداً عن تكريس مراكز القوة المسلحة المستقلة.

يستعرض المقال تجارب ليبيا والعراق واليمن وسوريا والصومال، موضحاً كيف أسهم تعدد التشكيلات المسلحة وتضارب الولاءات في إضعاف مؤسسات الدولة وتعقيد فرص السلام والاستقرار.

يخلص المقال إلى أن حماية وحدة السودان تتطلب توحيد المؤسسة العسكرية والأمنية، وإخضاعها للقانون والمساءلة، مع دمج المقاتلين المؤهلين أو تسريحهم وإعادة تأهيلهم، محذراً من أن تعدد الجيوش قد يتحول إلى بذور لتفكك الدولة من الداخل.

لا تكمن المأساة الكبرى للسودان في الحرب الدائرة وحدها، بل في الخطر الذي يتجاوز المعارك إلى مستقبل الدولة ووحدتها وسيادتها.

إن الدول لا تتفكك دائماً بإعلان رسمي أو برسم حدود جديدة، وإنما قد يبدأ تفككها تدريجياً عندما تفقد مؤسساتها احتكار القوة، وتتعدد الجهات التي تمتلك السلاح والقدرة على فرض الإرادة، ومن ثم تصبح الولاءات العسكرية والسياسية المتنافسة أقوى من رابطة الدولة نفسها... إن أخطر ما يواجه السودان ليس استمرار الحرب فحسب، وإنما إعادة إنتاج الظروف التي جعلت السلاح الموازي جزءاً من معادلة الحكم والصراع، وكأن إنشاء قوة مسلحة خارج المؤسسة العسكرية الوطنية يمكن أن يكون حلاً دائماً لمشكلة سياسية أو أمنية.

لقد أثبتت التجربة السودانية أن التوسع في بناء القوى المسلحة ذات القيادات المستقلة لا يضمن الاستقرار، بل قد يؤسس لصراع مؤجل ينفجر عندما تتعارض المصالح أو تتنازع الأطراف على السلطة والموارد والشرعية.

إن ما تقدمه قوات الدعم السريع مثلاً بالغ الوضوح على خطورة هذا المسار، إذ إن وجود قوة عسكرية ضخمة خارج بنية القيادة الموحدة للدولة خلق ازدواجاً في مراكز القوة، حتى انتهى الأمر إلى مواجهة مدمرة يدفع السودانيون ثمنها من أرواحهم وأمنهم وممتلكاتهم ومستقبل بلادهم.

ولعل الدرس هنا لا يتعلق باسم قوة بعينها أو بالظروف التي نشأت فيها، وإنما بالمبدأ الذي سمح بتراكم القوة العسكرية المستقلة حتى أصبحت قادرة على منازعة الدولة نفسها. فعندما يصبح السلاح وسيلة لضمان النفوذ السياسي، تتراجع فرص بناء مؤسسات مستقرة، لأن كل طرف يبدأ في حساباته من حجم قوته المسلحة، لا من قوة القانون والمؤسسات، وتتحوّل التسويات السياسية إلى تفاهات هشة بين مراكز نفوذ يمكن أن تعود إلى الحرب متى رأت أن مصالحها مهددة.

ولا تنفرد السودان بهذه المخاطر، فقد قدمت ليبيا مثلاً على الصعوبات التي تواجه الدولة عندما تتعدد التشكيلات المسلحة وتتوزع السيطرة بين قوى ذات ولاءات ومصالح متباينة، فتصبح إعادة توحيد المؤسسة العسكرية والأمنية جزءاً من أزمة

سياسية ممتدة... وفي العراق، أظهرت تجربة الفصائل المسلحة المرتبطة بمراكز سياسية ونفوذ متباين مدى تعقيد العلاقة بين السلطة الرسمية والقوى المسلحة التي لا تتطابق بالضرورة حساباتها مع متطلبات الدولة، وما يترتب على ذلك من تحديات تتصل بوحدة القرار الأمني وسيادة المؤسسات.

أما في اليمن، فقد كشفت الحرب كيف يمكن لتعدد القوى المسلحة وتنازع الشرعيات والتدخلات الإقليمية أن يؤدي إلى انقسام السيطرة على الأرض وتراجع مؤسسات الدولة وتحويل الصراع إلى أزمة ممتدة يصعب إنهاؤها بتسوية سياسية وحدها. وفي سوريا، أسهم تعدد التشكيلات المسلحة واختلاف مرجعياتها، إلى جانب التدخلات الخارجية وتضارب المشاريع السياسية والعسكرية، في تعقيد النزاع وإضعاف وحدة القرار والسيطرة، لتصبح إعادة بناء مؤسسات وطنية جامعة من القضايا الجوهرية لأي استقرار مستدام... وتضيف الصومال درساً آخر لا يقل أهمية، إذ أظهرت تجربته كيف يمكن لانهايار مؤسسات الدولة وتعدد القوى المسلحة ومراكز النفوذ أن يطيل أمد الصراع ويجعل استعادة سلطة وطنية قادرة على بسط الأمن وتوحيد القرار مهمة شاقة وطويلة.

لا يعني استحضار هذه التجارب أن ظروف السودان مطابقة لظروف ليبيا أو العراق أو اليمن أو سوريا أو الصومال، فلكل بلد سياقه التاريخي والسياسي والاجتماعي، لكن المقارنة تكشف خطراً مشتركاً يتمثل في أن تعدد مراكز القوة المسلحة، حين يستمر من دون معالجة مؤسسية جادة، يجعل الدولة أكثر هشاشة، ويمنح القوى المتنافسة قدرة على تعطيل التسويات وفرض الأمر الواقع، ويزيد صعوبة الوصول إلى سلام مستقر.

إن الجيوش البديلة لا تبقى بالضرورة أدوات تحت تصرف من أنشأها، كما أن التشكيلات التي تُقدّم في البداية بوصفها استجابة لضرورة أمنية أو سياسية قد تتحول مع مرور الوقت إلى كيانات لها مصالحها الخاصة، وتصبح عملية إخضاعها لسلطة الدولة أصعب من قرار السماح بإنشائها... وتزداد خطورة الأمر عندما يجري التعامل مع تعدد القوات باعتباره استحقاقاً سياسياً أو ضماناً لتوازن السلطة، بدلاً من اعتباره قضية سيادية لا يمكن حلها إلا ضمن مشروع

وطني لتوحيد المؤسسة العسكرية والأمنية. وفي هذا السياق، تبرز تجربة اتفاق جوبا للسلام وما ارتبط بها من تحديات في تنفيذ الترتيبات الأمنية بوصفها تذكيراً بأن توقيع الاتفاقيات وتقاسم المناصب لا يكفيان وحدهما لإنهاء أسباب النزاع، ما لم يتحول الالتزام بتوحيد القوات وإعادة بناء المؤسسات إلى خطوات عملية واضحة. فالسلام لا يقاس بعدد الاتفاقيات ولا بحجم المكاسب السياسية التي تحصل عليها الأطراف، وإنما بقدرة الدولة على منع عودة الحرب، وبناء مؤسسات تحمي المواطنين من دون تمييز، وتضمن ألا يتحول كل خلاف سياسي إلى مواجهة مسلحة. ومن هنا، فإن أي دعوة إلى إنشاء قوة مسلحة جديدة أو الإبقاء على تشكيل مستقل عن القيادة العسكرية الوطنية تستوجب نقاشاً جاداً، مهما كانت الجهة التي تطرحها أو المبررات التي تستند إليها. وفي هذا الإطار، فإن التصريح المنسوب إلى مني أركو مناوي في السابع من أكتوبر الجاري ينبغي تناوله على ضوء مضمونه الدقيق وسياقه، والتحقق من نصه قبل بناء استنتاجات نهائية عليه.

لكن المبدأ العام يظل واضحاً، فلا يمكن معالجة مشكلة تعدد الجيوش بإنشاء جيوش إضافية، ولا يمكن ضمان أمن إقليم أو جماعة عبر تكريس استقلال التشكيلات المسلحة. إن مثل هذا النهج يفتح الباب أمام سباق متبادل، تستند فيه كل جهة إلى مخاوفها لتبرير امتلاك قوة مستقلة، ثم تستند الجهات الأخرى إلى وجود تلك القوة لتبرير إنشاء قوى مقابلة، فتدخل البلاد في دائرة من التسليح المتبادل يصبح الخروج منها أكثر صعوبة مع مرور الوقت... ولا يعني رفض الجيوش الموازية تجاهل المظالم التاريخية أو مطالب الأقاليم بالعدالة والتمثيل والأمن، بل يعني ضرورة معالجة تلك المظالم من خلال مؤسسات دستورية عادلة، وتوزيع منصف للسلطة والثروة، وأجهزة أمنية مهنية تخضع للقانون والمساءلة، بدلاً من تحويل كل مظلمة إلى مبرر لبناء قوة مسلحة منفصلة.

إن السلاح قد يمنح صاحبه قدرة على فرض مطالبه مؤقتاً، لكنه لا يؤسس وحده لعدالة مستدامة، وقد يجعل المجتمع بأسره رهينة لتوازنات القوة ومصالح قادتها. إن السودان، وهو يواجه حرباً تهدد نسيجه الاجتماعي ومؤسساته ومستقبله

الاقتصادي، لا يحتمل إعادة إنتاج النماذج التي جعلت تعدد القوى المسلحة عقبة أمام السلام وإعادة بناء الدولة.

إن الخيار الاستراتيجي المطلوب هو حصر السلاح المنظم في مؤسسات الدولة، وتوحيد القيادة العسكرية والأمنية، وإخضاع القوات للقانون والرقابة والمساءلة، وفق ترتيبات واضحة ومراحل قابلة للتنفيذ، مع معالجة أوضاع المقاتلين عبر الدمج المؤهل أو التسريح وإعادة التأهيل وفق معايير مهنية وطنية. وينبغي أن يترافق ذلك مع إصلاح سياسي يعالج جذور التهميش والنزاعات ويضمن مشاركة عادلة في السلطة والثروة، لأن توحيد السلاح من دون بناء الثقة والعدالة قد يترك أسباب الصراع قائمة، مثلما أن التسويات السياسية التي تتجاهل وحدة المؤسسة العسكرية لا تفعل سوى تأجيل المواجهة المقبلة...

إن الدرس الذي تقدمه تجارب ليبيا والعراق واليمن وسوريا والصومال ليس أن مصير كل دولة تسمح بتعدد القوى المسلحة هو التفكك حتماً، وإنما أن ترك مراكز القوة تتراكم خارج إطار مؤسسي وطني موحد يرفع كلفة الاستقرار ويجعل إعادة بناء الدولة أكثر تعقيداً. ولهذا ينبغي أن يكون السؤال أمام السودانيّين واضحاً: فهل يريدون دولة تمتلك مؤسساتها قرار الحرب والسلام، أم ساحة تتقاسمها قوى مسلحة تتفاوض على النفوذ وتفرض إرادتها كلما تعثرت السياسة؟

إن مستقبل السودان لا يُحمى بتكثير الجيوش أو توزيع السلاح تحت عناوين التوازن والحماية والتمثيل، بل ببناء دولة عادلة وقادرة، يكون فيها الجيش مؤسسة وطنية مهنية موحدة، وتضامن فيها الحقوق بالقانون، لا بقدرة كل جماعة على حمل السلاح... فبناء السلام لا يبدأ بإعادة إنتاج الجيوش البديلة تحت أسماء جديدة، وإنما بإغلاق الباب أمام منطقتها، ومعالجة الأسباب السياسية والاجتماعية التي تستدعيها، واستعادة سلطة الدولة على أساس المواطنة والعدالة وسيادة القانون.

فإذا أراد السودان أن يتجنب بذور تفككه القادم، فعليه أن يستوعب دروس التجارب المحيطة قبل أن تتحول التحذيرات إلى واقع يصعب تغييره، وأن يدرك أن تعدد الجيوش ليس ضماناً لوحدة البلاد، بل قد يكون الطريق الذي تتأكل عبره تلك الوحدة من الداخل.



الاتجاه الخامس

جنيه نيفاشا.. جنيه.. حميدتي

د. كمال الشريف

ملخص

ينتقد الكاتب سياسات تبديل العملة في السودان خلال العقود الماضية، معتبراً أنها لم تحقق إصلاحاً اقتصادياً حقيقياً، بل استُخدمت لمحاولة استعادة السيولة إلى المصارف والسيطرة على النقد المتداول.

يربط الكاتب الأزمة بتراجع الرقابة المصرفية، والتزوير، وتهريب الذهب والعملات ومحاصيل الصادرات، فضلاً عن نهب المصارف عقب اندلاع الحرب في أبريل 2023، وما ترتب عليه من تفاقم الفوضى الاقتصادية والأمنية.

يستعرض محطات تغيير العملة منذ عام 1992، مروراً بالعودة إلى الجنيه في 2007، وتداعيات انفصال الجنوب، وصولاً إلى إصدارات 2018 و2019، مشيراً إلى أن هذه الإجراءات لم تعالج الاختلالات الهيكلية للاقتصاد.

يخلص إلى أن تبديل العملة وحده لا يصنع اقتصاداً سليماً، محذراً من أن إجراءات 2024-2026 لم تعالج جذور الأزمة، وأن الإصلاح الحقيقي يتطلب ضبط حركة النقد والتجارة والتهريب، واستعادة موارد الدولة وبناء سياسة اقتصادية واضحة



تبديل العملة في حركة 36 سنة مضت من تاريخ السودان لم يكن له أثراً واضحاً في حركة نمو الاقتصاد السوداني، وكانت أسبابها كلها تأتي لأخذ أموال الناس ومحاولة إعادتها للنظام المصرفي الذي أصبح بعد بيع الحكومة لمصارفها يمثل واحداً من التجار في حركة الاقتصاد.

المصرف الذي يبدل لك العملة هو فرغت خزائنه من السيولة، ويحاول إعادتها ليسيطر على حركة تجارته وتعاملاته

التجارية، ومن أهمها تجارة العملة وتجارة الذهب ومحاصيل الصادر، بمعنى آخر أن يكون البلف في يديه.

ولهذا تجد مصارف الحكومة أو بقالاتها أو تجارها بتصنيف أفضل يحاولون بحركة تبديل العملة بالسيطرة على الكاش بعد أن هرب منها بعد اكتشاف التجار بأن يكن الكاش بين أيديهم أكثر ربحاً من تسليم رقابهم لتاجر آخر (البنك)، وهو بدوره يسيطر على حركة تجارتهم التي أغلبها غير مشروع، وهذا ما تعلمه التجار من المصارف نفسها.

أغلب التجار شركاء مصارف وشركاء تهريب وشركاء تجارة ذهب وعملة.

وإنه تراجع تاريخ تبديل العملة في السودان تجد أن الأمر كله غير منظم وبدون هدف قومي، ولكنه من أجل مثلاً:

1/ أيام حمدي لمشروع التحرير الاقتصادي، وهذا نتج عنه نظرية اشتري وخزن.

2/ بعد الانفصال وهروب أموال النفط التي كانت مشاركة مع الجنوب وتم نهبها تماماً.. أصبح التضخم نظير مرحلة ما بعد الانفصال وسحب صفر من العملة، فأصبح المليار مليون، وهكذا.

وأصبح هذا أكبر كمين تم إعداده لسهولة نهب الدولة.

3/ وجاء هذا بعد مشاركة نهب الأموال أولاً بالتزوير، وثانياً بالتصديق بطباعة حاويات من العملة خارج السودان، الإمارات مثلاً.

4/ النهب الذي حدث بعد 15 أبريل 23 من عدة جهات للمصارف، ومنها المركزي، وما تبعه من

همج اقتصادي وأمني، وكانت ثورة التهريب الخرق الذي دمر اقتصاد البلاد تدميراً ممنهجاً، وأعاد الفوضى إلى عدم وجود استراتيجية في رقابة حركة التهريب الذي أصبح منظماً وعلى عينك يا مواطن، بمسميات وطنية للأسف.

إن مسألة النظر في تغيير مراحل للعملة ما هو إلا تخريب لمن تبقى من خامات البلاد وصادراتها ببيعها داخل السودان بالعملة الصعبة، وهذا ما يحدث بالضبط، وتهريبها وعدم عودة حصائلها لخزينة الدولة، وإلهاء الناس بالداخل بتبديل العملة ومحاولة السيطرة على الكاش.

وجدولة تبديل العملة تأتيك كما هو مبين لوضع صفر أو سحب صفر.

إنها مسألة تلاعب بالأصفار فقط.

1992: الجنيه إلى الدينار (1 دينار = 10 جنيهاً). تغيير الوحدة لم يكن إصلاحاً كافياً.

2007: العودة إلى الجنيه (1 جنيه = 100 دينار). نجاح العملية لم يكن بسبب تغيير العملة وحده، بل البيئة الاقتصادية (النفط، اتفاقية السلام).

بعد انفصال الجنوب (2011): إعادة ترتيب النظام النقدي بين دولتين.

2018 و 2019: إصدارات نقدية جديدة لم تعالج الاختلالات.

القاعدة: الأوراق النقدية تتبع الاقتصاد، ولا تستطيع أن تصنع اقتصاداً سليماً بمفردها.

ما المختلف في 2024-2026؟

تجد الاختلاف الكلي لم يعط ضوء أخضر للاقتصاد، بل زادت في حجم التزوير والتهريب والتخريب.



من «محاولة لتسلق ظل الورد»
إلى «35 ملم.. نصوص بصرية»:

نشيد شعري واحد مهمتد ليوسف الحبوب

دون قصد إلى نصوص
فرنسية قرأتها منذ
زمن بعيد.

فأول ما خطر لي كان
بودلير. ففي «أزهار
الشر» عام 1857م فعل
بودلير ما فعله الحبوب،
لكن على نحو معكوس.
لقد أخذ بودلير القبح
وصنع منه وردة، بينما
أخذ يوسف الورد في
عام 2016م وحولها إلى
ظل، ثم صنع لذلك الظل
جسدًا من قش في عام
2019م، ثم صوره في عام



2025م. وحتى كلمة Ombre التي استخدمتها في
الترجمة الفرنسية، ثقيلة مثل كلمة «ظل» عندنا
تمامًا، فالظل ليس ظلامًا، بل هو بقية ضوء.
بعد ذلك تذكرت رامبو فورًا وجملته الشهيرة
Je est un autre - أنا هو آخر. أليست هي ذات
الفكرة التي كتبها يوسف في «فزاعة تلوح في
ظهيره يوم بطيء» حين جعل الفزاعة تخيف
غيرها وهي مجرد إيهام، ثم أعادها في ديوانه
الجديد [ص28] حين كتب:

هذا صباح فارق

وفارغ في الجحيم

فالجحيم واحد عند الثلاثة، مكان لا تستطيع
فيه حتى أن تتسلق ظلًا.

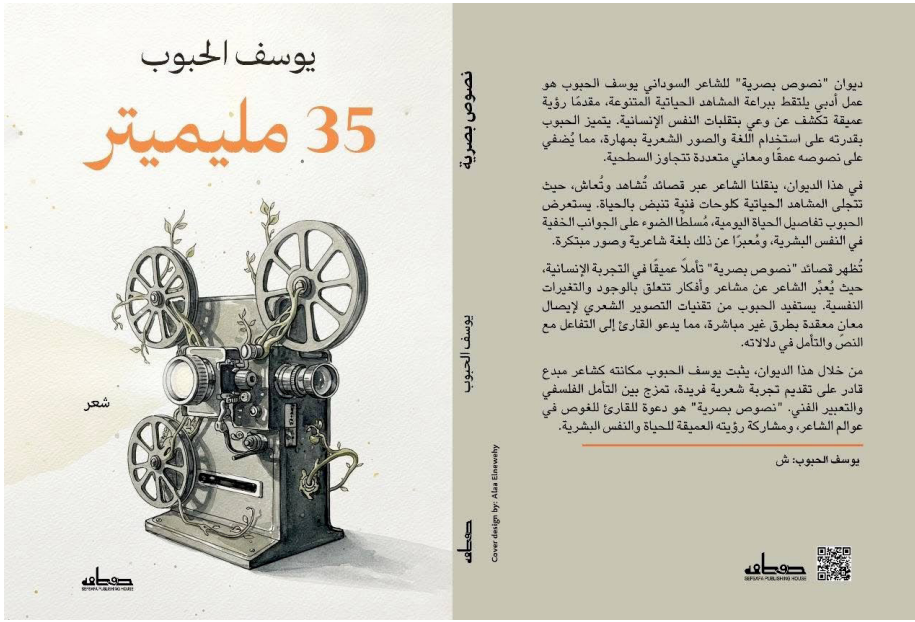
ولا تنتهي القصة هنا. فبول إيلوار كان قد

بقلم: صلاح محمد الحسن القويضي*

لا أرى أن الصديق العزيز، يوسف
الحبوب، قد كتب ثلاثة دواوين منفصلة.
الذي أراه هو أنه ظل يكتب نشيدًا
شعريًا واحدًا ممتدًا، ابتداءً في عام
2016م بمحاولة مستحيلة لـ «تسلق ظل
الورد»، ثم عبر به إلى فزاعة تلوح في
ظهيره يوم بطيء في عام 2019م، حتى
استقر به في عام 2025م عند «صورة
مقاس 35 ملم».

وما زلت أذكر جيدًا حين صدر «محاولة
لتسلق ظل الورد» عن دار صفصافة في
القاهرة عام 2016م، إذ أرسل إليّ الحبوب
نسخة منه، وطلب مني ترجمتها إلى

الفرنسية، فأنجزت ترجمتها بعنوان Tentative
de Grimper l'Ombre de la Rose، وصدرت عن دار
ال دراويش في بلغاريا. يومها قرأه الأصدقاء في
باريس ولم يشعروا أنه غريب عنهم، وما ذلك
إلا لأن يوسف كان يكتب بلغتهم دون أن يدري.
وقد توقف النقاد طويلاً عند لغته. أجمعوا
على أنها لغة لا تزخرف ولا تثرثر، لغة
مقتصدة تضع الصورة فوق الصورة، وتترك
للفراغ والصمت دور البطولة. بل إنهم وجدوا
في العنوان نفسه فلسفة مكتملة: فأن تتسلق
ظلًا يعني أن تحاول الإمساك بما لا يمسك، وأن
تجعل من الغياب حضورًا، ومن الصمت كلامًا.
ومن هنا، وأثناء قراءتي للدواوين الثلاثة
معًا، القديم والوسيط والجديد، وجدتهني أحوال



قال يوماً L'amour la poésie - الحب هو الشعر. ويوسف يقولها بطريقته الخاصة في [ص9] من «35 ملم / نصوص بصرية»: «لقد قررت أن أحتفي بك وحدي هكذا وبطريقتي الخاصة». إنه الاحتفاء الفردي ذاته الذي بدأه في ظل الورد.

أما بيير ريفردي فقد ترك جملة ظلت ترن في أذني وأنا أقرأ يوسف: «الصورة خلق خالص للروح». وهذه

الجملة هي الخيط الناظم الذي يربط الدواوين الثلاثة. ففي ظل الورد كانت الصورة متخيلة، وفي فزاعة بدأ تفكيكها كما هو موثق في الكتاب نفسه ص13: «يفتن الشاعر منذ ديوانه (محاولة لتسلق ظل الورد) بتفكيك الكلمة إلى مكوناتها الحرفي، مستثمرًا الطاقة الموسيقية للحرف»، وفي «35 ملم / نصوص بصرية» اكتمل حين كتب كلمة (أزگرد) عمودياً ص14:

أ
ز
غ
ر
د

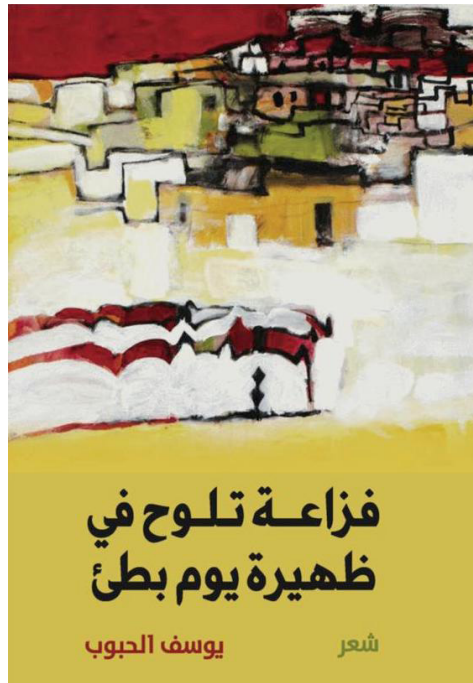
وهكذا حوّل الكلمة إلى صورة مرئية. وفي السياق ذاته لا أنسى إيف بونفوا حين عرّف الشعر بأنه «حضور الغياب». أليس هذا هو تعريف الدواوين الثلاثة حرفياً؟ حضور

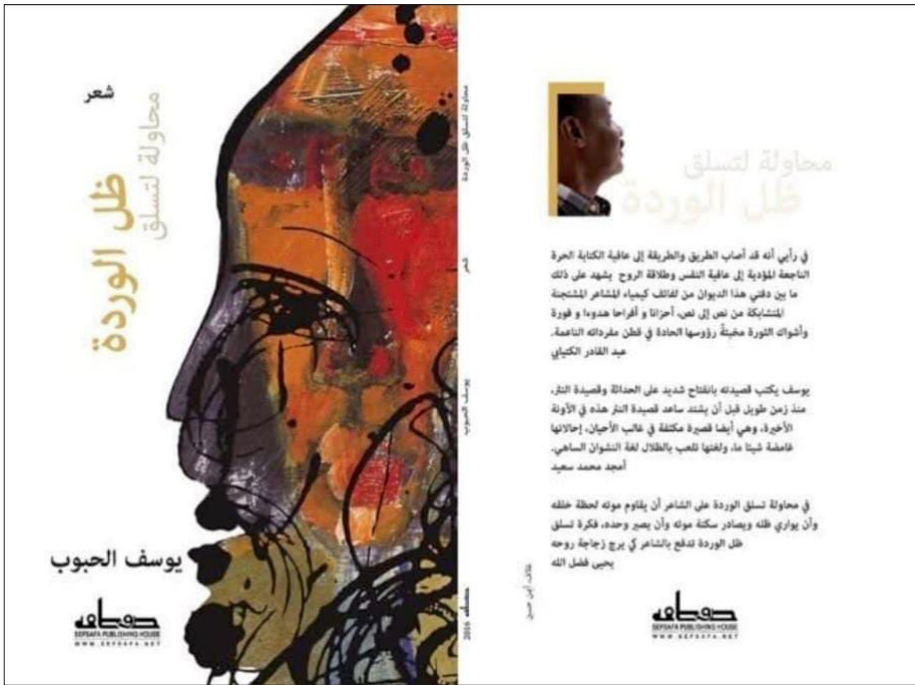
الغياب في عام 2016م، وإيهام الغياب في عام 2019م كما جاء في ص18 من فزاعة: «في العنوان هناك إحياء بوجود شيء قابل لإخافة الآخرين، وهذه الإخافة ربما تكون حقيقية أو متوهمة؛ لأن فكرة الفزاعة قائمة على الإيهام»، ثم تصوير الغياب في عام 2025م. غير أن النقلة الحقيقية، والقلب الحقيقي للتحوّل عند يوسف، وجدها عند أبولينير عام 1918م. فقد كتب أبولينير قصيدة (شجرة) على شكل شجرة، وقصيدة (إنها تمطر) على شكل مطر نازل، وجعل

الحروف تمطر فعلاً من أعلى الصفحة. ويوسف لم ينسخ أبولينير، لكنه مشى في الشارع نفسه. ففي عام 2016م كان يقول الورد وظلها، وفي عام 2019م صنع لها جسداً يلوح في الظهيرة، وفي عام 2025م أصبح يرسمها، الظل والورد. ولذلك لم أستغرب مفتاحه في أول الديوان الجديد [ص5]: «هذه نصوص بصرية.. قد تقرأ بالعين المجردة.. أو بالانظارة الطبية.. إلا أنه يُفضل قراءتها بالقلب». وهو المفتاح نفسه الذي اختاره الحبوب لديوانه السابق (رأس الحكمة مخافة الشعر) ص22.

وبين الورد والفيلم، جاءت الفزاعة كحلقة وصل ضرورية. فقد صدر ديوان (فزاعة تلوح في ظهيرة يوم بطيء) عن دار صفصافة أيضاً عام 2019م. وإذا كانت محاولة عام 2016م تحاول الإمساك بالغياب، فإن فزاعة عام 2019م تصنع للغياب جسداً، وإن [35 ملم / نصوص بصرية] عام 2025م يصور ذلك الجسد. فالفزاعة لا تخيف لأنها حقيقية، بل لأنها إيهام، تماماً كظل الورد.

وإذا كان (محاولة لتسلق ظل الورد) يحاور بودلير ورامبو، وكان (35 ملم / نصوص بصرية) يحاور أبولينير، فإن (فزاعة تلوح في ظهيرة يوم بطيء) هي التي تحاور الوجودية الفرنسية مباشرة. ففيها يفتتح يوسف أحد أقسامها بقول سقراط: (ليس الموت سوى فزاعة)، وهي فكرة العدم الذي يخيف لأنه لا شيء، قلب فلسفة سارتر





في (الوجود والعدم) عام 1943م، كما أن عنوانها نفسه (ظهيرة يوم بطيء) هو يوم كامو الغريب في (الغريب) عام 1942م، زمن بطيء وثقيل لا يمر. بل إن تقنية التفكيك الحرفي التي اعتبرناها دستور (35 ملم/نصوص بصرية)، وجدتها تبدأ في (فزاعة تلوح في ظهيرة يوم بطيء) نفسها ص39: الموسيقي.....

منطق

العاشق

و

مستغرق

المحب.

وص99 حين فكك كلمة السحيفة عمودياً:

البلاد

نحو

الهاوية

ا

ل

س

ح

ي

ق

ة

تماماً مثل:

أ

ز

غ

ر

د

الشاعر أن يقاوم النعاس والوظيفة... كيف خطر لشاعر أن يتسلق ظل وردة؟ ويا لها من فكرة.. فكرة تدفع بالشاعر كي يرج زجاجة روحه»، وختمها قائلاً: «بأن الفعل البسيط يتحول إلى مأزق وجودي». في المقابل، رآها عبد القادر الكتابي من جهة العافية والخلاص، فقال: «لقد أصاب الطريق والطريقة إلى عافية الكتابة الحرة الناجمة المؤدية إلى عافية النفس وطلاقة الروح». أما في (فزاعة تلوح في ظهيرة يوم بطيء) فقد توقف الدكتور عبد القادر جبار عند لعبة النقائض عند الحبوب، فقال في (الحبوب والشعرية العربية) ص17: «يُعد الشاعر السوداني يوسف الحبوب واحداً من الأصوات الشعرية المهمة في الوطن العربي، وتأتي أهمية الحبوب من قدراته على استيعاب لغة الشعر ومحاولة تطويعها للرسالة التي يريد إيصالها... فقصيدة الحبوب غالباً ما تعتمد النقائض والافتراق، وتعتمد الانتقال من حالة إلى أخرى نقيضة في لعبة يتقن الحبوب أسرارها اسمها (الشعر)».

في حين ذهب كاتب تقديم الديوان نفسه ص18 إلى أن بساطة الحبوب الظاهرة هي فخ جمالي، فقال: «هذه البساطة سرعان ما تسحب القارئ إلى العوالم الخفية المتدثرة في بنيات النص، فهي لا تمنح لذتها للقارئ بسهولة ولا تمنح أسرارها للقارئ مرة واحدة أيضاً؛ لأن هذه الأسرار مرتكزة على العلاقات البعيدة في النص»، وفسر عنوان الفزاعة نفسه بقوله: «في العنوان هناك إحياء بوجود شيء قابل لإخافة الآخرين، وهذه الإخافة ربما تكون حقيقية أو متوهمة؛ لأن فكرة الفزاعة قائمة على الإيهام، وهذا البعد الاحتمالي في العنوان يمتلك امتداداته في النص».

في (35 ملم/نصوص بصرية) ص14، وهو الـ Calligramme الأبولينيري قبل ست سنوات من اكتماله. وبناءً عليه تتطور عند يوسف العلاقة بين الكتابة وصورة الكتابة عبر الدواوين الثلاثة: ففي عام 2016م كانت الكتابة تحاول أن تكتب الظل، وفي عام 2019م أصبحت الكتابة تصنع للظل جسداً من حروف، وفي عام 2025م أصبحت صورة الكتابة نفسها هي الكتابة.

وعلى ضوء ذلك انقسمت آراء أصدقائنا النقاد. ففي (محاولة لتسليق ظل الورد) رآها يحيى فضل الله، بقلبه الكبير، مأزقاً وجودياً، وكتب: «ما بين الورد وظلها وفكرة التسليق، على



والحقيقة أن كل هذه الآراء على حق، وكلها تصب في نشيد واحد.

وبين المأزق والعافية والإيهام، جاء (35 ملم/ نصوص بصرية) نهاية عام 2025م. وقد وصفه النقاد بأنه تجربة مختلفة، تربط بين العين والقلب، وبين القراءة البصرية والوعي.

وهنا أريد أن أتوقف عند العناوين الثلاثة نفسها. فـ (محاولة لتسلق ظل الورد) عنوان حالم، فعل مستحيل.

(وفزاعة تلوح في ظهيرة يوم

بطيء) عنوان مشهدي، زمن بطيء وجسد يلوح. أما (35 ملم/ نصوص بصرية) فعنوان تقني، بارد، رقمي، مقاس شريط سينما. كأن يوسف انتقل من شاعر يحاول أن يمسك الهواء، إلى صانع فزاعات يحرس الهواء، إلى مصور يضبط عدسته.

وفي مكتبتنا السودانية التي تعودنا فيها على عناوين مثل (أغاني وأشجان)، أن تسمى ديوانك بمقاس فيلم هو تمرد كامل. وهو تمرد ينسجم تمامًا مع تفكيكه لكلمة (أزغرد) عموديًا. والرسالة واضحة: القصيدة لم تعد تلقى، بل تُعرض.

وقد نفذ هذا في نصوص لا تُنسى. ففي (ص25) من (35 ملم / نصوص بصرية) كتب:

وجهود شباب الحي

في

توزيع عادل

للسلطة

والثروة

والماء

و

الوجه الحسن

فجعل الوجه الحسن حاجة أساسية مثل الخبز والماء. وفي [ص30] اختصر كل شيء:

ونصف حقيقة

ونصف موت

ثم ختم نشيده الطويل الممتد عبر الدواوين الثلاثة كله بقرار قاطع لا رجعة فيه [ص78]:

فأنا

ضد الحنين

وضد

تواتر الذكريات،

أنا ضد

وهكذا انتهى النشيد، لكن الصورة بقيت مقاس 35 ملم.

المراجع:

1. الحبوب، يوسف. [محاولة لتسلق ظل الورد]. القاهرة: دار صفصافة للنشر، 2016م.
2. الحبوب، يوسف. ترجمة: القويضي، صلاح محمد الحسن. Tentative de Grimper l'Ombre de la Rose. بلغاريا: دار الدراويش، 2017م.
3. الحبوب، يوسف. [فزاعة تلوح في ظهيرة يوم بطيء]. القاهرة: دار صفصافة للنشر، 2019م.
4. الحبوب، يوسف. [35 ملم / نصوص بصرية]. 2025م.
5. بودلير، شارل. [أزهار الشر]. 1857م.
6. رامبو، آرثر. [رسائل الرائي]. 1871م.
7. أبولينير، غيوم. [قصائد مصورة - Calligrammes]. 1918م.
8. سارتر، جان بول. [الوجود والعدم]. 1943م.
9. كامو، ألبيير. [الغريب]. 1942م.
10. فضل الله، يحيى. قراءة نقدية في [محاولة لتسلق ظل الورد].
11. الكتيابي، عبد القادر. قراءة نقدية في [محاولة لتسلق ظل الورد].
12. جبار، عبد القادر. [الحبوب والشعرية العربية] - مقدمة [فزاعة تلوح في ظهيرة يوم بطيء]، ص17.
13. مقدمة [فزاعة تلوح في ظهيرة يوم بطيء] النقدية، ص18.
- رابطة الجزيرة للآداب والفنون - ودمدني / السودان



«هل من قيمة لكتابة قصة في زمن الفوضى؟»:

الروائية إليف شافاك تتحدث عن أزمته الإبداعية

تتحدث الروائية التركية إليف شافاك عن أزمته الإبداعية في ظل الحروب والانقسامات والقلق، متسائلة عن جدوى كتابة الأدب في زمن الفوضى، مؤكدة أن روايتها الأخيرة تمثل رسالة حب للأدب والإنسانية.

ملخص

تروي الكاتبة تجربتها مع الملاحقة القضائية في تركيا بسبب أعمالها التي تناولت قضايا حساسة، وما تعرضت له من تهديدات وإساءات، مؤكدة أن مغادرتها البلاد ارتبطت بحاجتها إلى حرية التعبير والخيال، وأن لندن أصبحت موطنها.

تستعيد شافاك طفولتها التي اتسمت بالتنقل والشعور بالوحدة، موضحة أن الكتب كانت ملاذها، وأن تجاربها الشخصية والثقافية أسهمت في تشكيل رؤيتها الأدبية القائمة على تعدد الأصوات والتداخل بين الثقافات.

رغم القلق والاكتئاب والشكوك التي ترافق الكتابة، ترى شافاك أن الأدب من آخر المساحات الديمقراطية التي تتيح للناس التمهّل والاستماع إلى بعضهم بعضاً، وأن فن الحكاية يتجاوز الحدود والثقافات، لأنه يستند إلى الإنسانية المشتركة.

تجلس على مكتبك
وتشعر بالكثير من
الشك الذاتي، لكن
هذا أيضاً جزء من
العملية الإبداعية

ربما أكون في منفي
اختياري، ولكن بصفتي
كاتبة، فأنا بحاجة إلى
الحرية - حرية الخيال،
وحرية التعبير



تتنقل رواياتها بثقة عبر القرون والقارات، متناولة السياسة والتاريخ والنسوية والبيئة، مع لمسة من الواقعية السحرية أو التصوف. روايتها الأخيرة، «في لحظة وجيزة، أبدية»، هي سيرة روائية مبتكرة أسلوبياً لغوستاف فلوبير. تقول شافاك، وهي تحتسي قهوتها في غرب لندن، حيث تعيش الكاتبة البالغة من العمر 54 عاماً مع زوجها وطفليها منذ 18 عاماً: «هذا الكتاب هو في الحقيقة رسالة حبي للأدب». وبينما يُعتبر فلوبير اليوم الأب الروحي للرواية الحديثة - كما قال نابوكوف، لولا فلوبير لما كان هناك مارسيل بروست أو جيمس جويس - فقد أمضى معظم حياته في عزلة وظلال من الغموض. وهذا ما يثير اهتمام شافاك. «تدور الرواية حول فتى وحيد أساء فهمه كل من حوله تقريباً، بمن فيهم أفراد عائلته. لقد نظر إليه على أنه فاشل، ومخيب للآمال، وعومل على أنه «الآخر». الرواية مهداة لكل من شعر بمعاملة مماثلة». تقول: «أردت أن أكون قادرة على قول: «أنت أخي، أنت أختي». كانت تلك هي البداية».

تحدث شافاك بنفس الطلاقة والعمق الشعري الذي تكتب به، بجمل طويلة وواسعة النطاق. وفي الواقع، تُنصت باهتمام بالغ وتبتسم كثيراً، رغم جدية كلماتها. كان آخر لقاء لنا عندما كانت ضمن لجنة نقاش قائمة صحيفة الغارديان لأفضل 100 رواية على مر العصور في وقت سابق من هذا العام: كانت رواية «مدمام بوفاري» ضمن أفضل عشر روايات لديها، ولكنها، مثل فلوبير نفسه، من أشد المعجبين برواية «دون كيخوته». على المسرح، كان صوتها رقيقاً للغاية، ولكن عندما تتحدث، يُنصت الجميع. وقد حظيت مؤخراً بشعبية متجددة بين القراء الشباب على منصة بوك توك. فلا عجب أن نرى طوابير طويلة من القراء من جميع الأعمار والجنسيات لحضور حفلات توقيع الكتب بعد فعالياتها الأدبية.

انبثقت رواية «في لحظة وجيزة، أبدية» كلها من لحظتنا التاريخية الراهنة، التي أطلقت عليها شافاك اسم «عصر الثلاثة أ: القلق، والغضب،

لطالما لُقبت إليف شافاك بـ«الكاتبة الأكثر قراءة في تركيا». واليوم، هي بلا شك الكاتبة الأكثر شعبية في البلاد. صحيح أن أورهان باموك قد فاز بجائزة نوبل في الأدب، إلا أن روايات شافاك هي التي تتداول بحماس بين القراء. روايتها «هناك أنهار في السماء»، التي تروي قصة قطرة مطر واحدة من نينوى القديمة إلى نهر دجلة عام 2018، كانت من بين أكثر الروايات الأدبية مبيعاً في المملكة المتحدة العام الماضي. أما روايتها «جزيرة الأشجار المفقودة»، وهي قصة حب تدور أحداثها في قبرص ما بعد الاستعمار ولندن المعاصرة، فقد وصلت إلى القائمة المختصرة لجائزة المرأة عام 2022، وروايتها «10 دقائق و38 ثانية في هذا العالم الغريب»، التي ترويها عاملة جنس قُتلت في إسطنبول، فقد وصلت إلى القائمة المختصرة لجائزة بوككر عام 2019. وفي ديسمبر الماضي، انتُخبت رئيسة للجمعية الملكية للأدب. قد يكون من المغري القول إنها في أوج عطائها، لكن سمعة شافاك وقاعدة قرائها تنمو باطراد منذ أكثر من 20 عاماً، وتمتد على مدى 20 عاماً، وتشمل عدداً مماثلاً من الكتب،

منها رواية 14.

في محاضرة لها على منصة تيد عام 2017، والتي حظيت بأكثر من 6,4 مليون مشاهد، وصفت نفسها بأنها من سكان إسطنبول «أوروبية المولد والاختيار»، ولندن منذ سنوات طويلة. «أحب أن أعتبر نفسي روحاً عالمية، مواطنة عالمية، رجالة، ورواية جواله».



والذكاء الاصطناعي». لكنها تقول إنها بدأت أيضًا من «مكان شخصي للغاية»، حين كانت تعاني من الاكتئاب والقلق، أو «هوزون» باللغة التركية، أي الحزن العميق. وتضيف: «في خضم عالم تشكله الحروب والعنف، والانقسام، وأزمة المناخ، والشكوك التكنولوجية، تجد نفسك تتساءل: ما معنى الانعزال في غرفة صغيرة والانشغال بالمرادف المثالي؟ هل ثمة قيمة في كتابة قصة قصيرة، أو قصيدة، أو رواية في زمن الأزمات والفوضى، كما هو الحال الآن؟ أردت أن أمعن النظر في هذا السؤال: الإبداع في زمن الأزمات».

قادها هذا إلى القرن التاسع عشر، عصر آخر من التغيير والاضطراب، حيث «عاش روائي محبوب كرس حياته للأدب بشغف بالغ». وبينما انطلق فلوبير لاستكشاف عقل المرأة - وهو ما كان يُعد حينها طرحًا جريئًا لروائي - قلبت شافاك فرضية رواية «مدام بوفاري» رأسًا على عقب لتروي قصته من خلال نساء متعدّدات ربما تقاطعت مساراتهن مع مساره. وتوضح قائلة: «أردت الجمع بين التراث الروائي الأوروبي والتقاليد الشفوية في سرد القصص في الشرق الأوسط. تفتح صندوقًا فتجد بداخله صندوقًا آخر، وتحت هذه القصة، قصة أخرى. إنه تعدّد في الأصوات».

وهكذا، لا تُروى حياة فلوبير من خلال عيون مربيته المحبوبة جولي فحسب، ووالدته، وعشيقته لويز كوليه، وصديقه المقربة جورج ساند، بل أيضًا من خلال عيون بهلوانية التقاها في صغره، وجملة تُدعى جميلة، وإيما بوفاري نفسها. نتعرف على راقصة وجارية مصرية تُدعى كوتشوك هانم، التي فُتن بها فلوبير خلال رحلاته في الشرق الأوسط، والتي ذُكرت عرضًا في بعض السير الذاتية. تقول شافاك: «أردت أن أتذكر هذه المرأة وأقول: ربما تكون هذه هي المرأة التي ألهمت مدام بوفاري». وتضيف: «أريد أن أؤكد أن في قلب هذه البطلة الأدبية الفرنسية الأوروبية الشهيرة، راقصة شرقية مصرية». كما خصصت فصول مستقلة للأفيون والزهرى وإسطنبول (لطالما أشارت شافاك إلى المدينة بضمير المؤنث).

تضحك قائلة: «في كل مرة أبدأ فيها بكتابة كتاب، أقول لنفسى: هذه المرة سأجعله بسيطًا للغاية». وتضيف: «أعتقد أن شخصيتي وتربيتي، بالإضافة إلى كل هذه التأثيرات الثقافية، تُشكل روافد تصب فيه. فنحن جميعًا مترابطون، ليس فقط فيما بيننا كبشر، بل مع

الطبيعة أيضًا. بالنسبة لي، يُمثل السرد الطويل تكريمًا لهذه الروابط».

قد يفصل بينهما قرنان تقريبًا، من حيث الجنسية والجنس، ولكن بمجرد أن بدأت البحث، كانت الروابط بين قصة فلوبير وقصتها لافتة للنظر، «بدءًا من تلك الطفولة الوحيدة، مع ذلك الشعور بأن تكون الآخر»، كما تقول.

رغم أن والديها تركيان، ولدت شافاك في ستراسبورغ، فرنسا، عام 1971، حيث كان والدها يدرس لنيل شهادة الدكتوراه. انفصل والداها بعد خمس سنوات، وعادت إليف الصغيرة مع والدتها للعيش مع جدتها لأمها في أنقرة. ومثل فلوبير، نشأت شافاك في كنف شخصيتين أموميتين. ورغم أن جدتها لم تكن متعلمة، إلا أنها أصرت على عودة والدتها إلى الجامعة التي تركتها عند زواجها. كانت شافاك تنادي والدتها «أختي الكبرى»، وجدتها «أمي»: «من إحداهما ورثت حبي للثقافة المكتوبة، ومن الأخرى ورثت حبي لرواية القصص الشفهية». كما تقول. تتذكر شقة جدتها كمكان ينبض بالسحر، ويعج بالطلاب ذوي الميول اليسارية، ورائحة سجائر غولواز.

رغم كل الحب الذي غمر طفولتها، شعرت شافاك بأن والدها، الأكاديمي الذي تزوج مرة أخرى، قد تخلى عنها. ومثل الدكتور فلوبير الشهير، والد غوستاف، كان «منعزلًا للغاية، متكبرًا للغاية». لم تره طوال معظم طفولتها، ولزمن طويل شعرت بغضب شديد لأنه كان أبًا مثاليًا لإخوتها غير الأشقاء. تقول: «شعرت وكأنني الطفلة المنسية. كان هناك فراغ. كان هناك غياب للحب. وأعتقد أن الغيابات تشكّلنا أيضًا. الصمت يُشكّلنا أيضًا».

بعد تخرجها، أصبحت والدتها مُدرسة ثم دبلوماسية. عندما بلغت شافاك العاشرة من عمرها، انتقلت العائلة إلى مدريد، حيث كانت طالبة التركية الوحيدة في المدرسة الدولية. عاشت في الأردن وألمانيا خلال فترة مراهقتها. تقول: «طوال تلك السنوات التي كنت أشعر فيها بوحدة شديدة، كانت الكتب ملاذي». عادت شافاك إلى أنقرة لدراسة العلاقات الدولية، ثم حصلت على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية. في العشرينات من عمرها، وبعد التدريس في إسطنبول، سافرت للدراسة في الولايات المتحدة. لاقت روايتها الأولى، «بينهان» (الصوفي)، استحسانًا كبيرًا عند نشرها في تركيا عام 1997. لكن قرارها كتابة روايتها الخامسة، «قديس الجنون الناشئ»، باللغة

الإنجليزية اعتبره الكثيرون في تركيا خيانة. أبرز أوجه التشابه بين فلوبيير وشافاك هو تعرض أعمالهما للمحاكمة: رواية «مدام بوفاري» بتهمة الفحش عام 1857، ورواية شافاك «لقيقة إسطنبول» عام 2006 بتهمة «التشهير العلني» بالهوية التركية، وذلك لتناولها موضوع الإبادة الجماعية للأرمن. اضطرت شافاك للعيش تحت حراسة شخصية لمدة عام ونصف، وأحرقت صورتها وبُصق عليها. بُرئت من التهم، لكن في عام 2019، حققت السلطات التركية مع روايتها «10 دقائق و38 ثانية في هذا العالم الغريب» بتهمة «جرائم الفحش»، إلى جانب كتابين سابقين لها هما «النظرة» و«بنات حواء الثلاث»، اللذان تناولوا مواضيع حساسة كزواج القاصرات والتحرش الجنسي. تم وضع زوجها، أيوب جان، وهو صحفي تركي ورئيس تحرير سابق لصحيفة راديكال الليبرالية التركية، على قائمة المطلوبين كجزء من حملة الرئيس أردوغان على المثقفين بعد محاولة الانقلاب الفاشلة في تركيا عام 2016.

وصفت الكاتبة تجربتها ككاتبة في تركيا بأنها «أشبه بتقبيل خد وصفعة على الآخر»، فالقبلة من القراء والصفعة من الحكومة. وتؤكد بشدة على مدى حب الناس لكتبتها في وطنها. «في دول مثل تركيا، الكتاب ليس ملكاً شخصياً. إذا أعجبتك رواية، لا يمكنك ببساطة إعادتها إلى الرف. بل تهديها لعمتك، والعمة تهديها لجارتها. إنه لأمر مؤثر للغاية».

لكنها وجدت نفسها مجدداً في قلب عاصفة في وطنها بعد محاضرتها في مؤتمر تيد عام 2017، بعنوان «القوة الثورية للفكر المتنوع»، والتي أعلنت فيها عن ميولها الجنسية المزدوجة. تقول الآن: «لا أعرف إن كان ذلك شجاعة. أتمنى لو فعلت ذلك من قبل. لكن الإساءة التي تلقيتها من وطني الأم لأسابيع متواصلة كانت مؤلمة للغاية».

لم تعد إلى تركيا منذ 11 عاماً. تقول: «هناك شعور بالحزن يكتنف الأمر. ربما أكون في منفى اختياري. لكن ككاتبة، أحتاج إلى الحرية. أحتاج إلى حرية الخيال، وحرية التعبير. شعرت وكأنني هاجرت أولاً إلى اللغة الإنجليزية، ثم إلى المملكة المتحدة. أصبحت لندن موطني. والآن أشعر بالاستقرار هنا، وأقول هذا بصفتي شخصاً عاش حياةً أشبه بالترحال».

نشأت ابنتها وابنها، اللذان غادرا المنزل للتو لبدء الفصل الدراسي الجامعي الجديد، وهما يتحدثان الإنجليزية. وغالباً ما تقيم والدتهما

المسنة معهما لفترات طويلة. تقول ساخرة: «أرجو ألا أكون قد أسأت لأحد، لكنني أعتقد أن قلة من الكتاب الذكور فوق سن معينة فقط لديهم جداول كتابة دقيقة. أما البقية، فهم ببساطة يوفقون بين أدوار متعددة». غالباً ما تكتب ليلاً، بينما تستمع إلى موسيقى الهيفي ميتال، وخاصةً موسيقى الموت الملحمي، عبر سماعاتها. تُعيد تشغيل الأغنية نفسها بشكل متكرر، غالباً 80 أو 90 مرة. وهي من مُحبي فرقة «سيسستم أوف أ داون» الأرمنية الأمريكية، التي كانت أيضاً من أشد المنتقدين للإبادة الجماعية للأرمن. تقول: «أحبها. إنها تمنحني طاقة هائلة». وبطريقة ما، يجعل هذا الأمر كتاباتها الروائية «أكثر هدوءاً».

لكن ذلك لا يُهدئها. تقول إن الكتابة لا تصبح أسهل مع التقدم في السن. «لا يهم إن كان كتابك الأول، أو الخامس، أو العاشر، فأنت تعاني. تجلس على مكتبك وتشعر بالكثير من الشك الذاتي. هناك الكثير من القلق، ونوبات الهلع. وهذا أيضاً جزء من العملية الإبداعية». عندما تنتهي، لا تشعر بالرضا أو الفخر، بل بالحزن. تقول: «أشعر بفقدان. أجد صعوبة بالغة في التخلي عن الشخصيات».

ثم تعود إلى العالم. تعتقد أن من المهم جداً أن يكون للمرأة صوت في الحياة العامة، وتُفاجأ بمدى حبها للمهرجانات الأدبية. تقول: «أنا بطبيعتي انطوائية، لذا فإن بيئتي الطبيعية هي غرفة صغيرة مليئة بالكتب. لكن عندما أكون على خشبة المسرح في فعالية أدبية، لا أشعر بالعبء، ولا أشعر بالمسؤولية، بل أشعر بمتعة عظيمة للعقل والروح». وباعتبارها شخصاً عانى من تهديدات بالسجن بسبب التعبير عن رأيه، تشعر بالإحباط من النظرة السلبية تجاه الفكر في المملكة المتحدة والولايات المتحدة. تقول: «يُنظر إلى ذلك على أنه علامة على الغرور والغطرسة. أنا لا أدعي أنني مثقفة، ما أدعيه هو أنني أكن احتراماً كبيراً للفكر».

بالنسبة لشفاك، الأدب هو «أحد آخر المساحات الديمقراطية المتبقية لدينا حيث لا نندفع من شيء إلى آخر، ولا نتلقى مجرد معلومات متفرقة، بل نتمهل ونستمع إلى بعضنا البعض من جديد»، كما تقول. «فن سرد القصص القديم عالمي للغاية. إنه خالد. لا ينتمي حقاً إلى عرق أو منطقة أو دين معين. إنه ملك للبشرية جمعاء. عندما أكتب وفي كتبي، أحاول أن أتذكر هذا النوع من...» للحظة، عجزت عن الكلام. «لا أعرف كيف أسميه سوى الإنسانية المشتركة».



حيدر إبراهيم .. إرث معرفي يتجاوز الغياب

محمد الأمين عبد النبي

استعاد الكاتب محطات من علاقته بالدكتور حيدر إبراهيم علي، مستحضراً دوره في دعم الشباب وتدريبهم على البحث والكتابة عبر مركز الدراسات السودانية، وإيمانه بقدرتهم على صناعة المستقبل.

ملخص

أوضح أن مشروعه الفكري ركّز على الديمقراطية، ونقد الإسلام السياسي، والدفاع عن الدولة المدنية القائمة على المواطنة والحرية والمساواة، معتبراً أن التغيير يبدأ بتحرير العقل وبناء الوعي المجتمعي.

أشار إلى انفتاح حيدر على النقد والحوار، واستعداده لمناقشة الآراء المختلفة، مؤكداً أن المعرفة لديه مسؤولية أخلاقية، وأن الاختلاف مدخل لتوسيع النقاش وإنتاج الأفكار.

أكد أن الوفاء لإرث حيدر إبراهيم يقتضي توثيق تجربته وجمع كتبه ودراساته ومقالاته وصون مكتبته وإتاحتها للأجيال الجديدة، لضمان استمرار أثره الفكري والتنويري في السودان.



كانت علاقتي بالدكتور حيدر إبراهيم علي محطات في تجربة فكرية وإنسانية أتاحت لي الاقتراب منه والتعرف على جانب من مشروعه التنويري وانفتاحه على الأجيال الجديدة وإيمانه بأن التغيير يبدأ بتحرير العقل وتوسيع مساحة النقد وبناء الوعي القادر على مساءلة الواقع واستشراف البدائل. كان حيدر ينظر إلى المعرفة كمسؤولية أخلاقية، وإلى الكتابة كفعل يتجاوز تفسير الواقع إلى الإسهام في تغييره. كانت أولى محطاتي المهمة معه حين أعاد فتح مركز الدراسات السودانية في الخرطوم، إذ جمع عدداً من الشباب كنت من بينهم في إطار مشروع للتدريب على الكتابة البحثية. وطلب مني إعداد ورقة عن التسامح والتعايش السلمي قدمت في المنتديات الدورية ثم نشرت ضمن سلسلة «كراسات سودانية»، كما طلب مني كتابة ورقة عن دور الشباب السوداني في المجتمع المدني نوقشت ونشرت في مجلة «كتابات سودانية». وما زلت أذكر اتصالات الأستاذ عبد الله أبوريش وهو يبلغني بأن الدكتور حيدر يريدني، إذ كان يحرص على التشاور معي ومع آخرين بشأن أنشطة المركز والمشاركة في تنفيذها. وقد منحني هذا الاهتمام فرصة للتجربة والكتابة، وأكد لي أن حيدر كان يُعَدُّ الشباب لصناعة المستقبل.

وعندما اندلعت ثورات الربيع العربي، دعا الدكتور حيدر إلى تأسيس «تجمع دعم ثورات الربيع العربي»، الذي ضمَّ مجموعات واسعة من مختلف أطياف المجتمع السوداني. وقد عكس ذلك اتساع أفقه السياسي والفكري واهتمامه بالتحولات الإقليمية من زاوية أسئلتها المتعلقة بالحرية والديمقراطية والعدالة ودور الشعوب في تقرير مصيرها. وكان تعاظمه مع تلك الثورات امتداداً لانشغاله بشروط التغيير وقدرة المجتمعات على التحرر من الاستبداد وإمكان الاستفادة من التجارب المحيطة في إعادة التفكير في الأزمة السودانية.

وفي القاهرة أهداني كتابه «التجديد عند الصادق المهدي الإشكاليات والاختلالات» عقب صدوره مباشرة، وبعد أسبوع كتبت مقالاً بعنوان «محاولة في نقد فريضة النقد في كتاب التجديد عند الصادق المهدي الإشكاليات والاختلالات» نشرته صحيفة «الصحافة»، فكان من أوائل المقالات التي تناولت الكتاب نقدياً قبل تداوله على نطاق واسع في الخرطوم. وعندما التقيته بعد ذلك، قال لي إن هذه ليست مجرد محاولة، بل نقد مكتمل الأركان فتح أمامه

جوانب مهمة تحتاج إلى حوار أعمق حول كسب الإمام الصادق المهدي.

ظلت هذه الواقعة حاضرة في ذاكرتي لأنها كشفت سمة أساسية في شخصية حيدر، هي استعدادده لاستقبال النقد والتفاعل معه دون أن يعدَّ الاختلاف انتقاصاً من جهده. فقد كان يرى في النقد فرصة لتوسيع النقاش وإعادة النظر في الأفكار، وهو ما يعكس ثقة المثقف الذي لا يحتاج إلى تحصين أطروحاته ضد المساءلة.

وكنا نجلس إليه في معيَّة الأستاذ الحاج وراق والأستاذة رشا عوض والحبیب محمد فول وآخرين في منزله بالمعادي، ونتناقش في قضايا السودان السياسية والفكرية والاجتماعية. كان يحرص على تجاوز ظاهر الأحداث إلى جذورها وربط الوقائع بسياقاتها التاريخية والاجتماعية. وعلى الرغم من معرفته الواسعة وقدرته التحليلية، كان يصغي بعقل مفتوح ويمنح الآراء المختلفة فرصتها في النقاش. ومن خلال تلك المجالس لمست قدرته على توليد الأفكار من داخل الحوار وربط القضايا المتباعدة في رؤية أوسع تساعد على فهم تناقضات الواقع.

وكان يمتلك كذلك قدرة لافتة على اختيار اللحظة المناسبة لطرح أفكاره وصياغة رؤيته النقدية بطريقة تفتح المجال للتفكير. وقد استندت هذه القدرة إلى معرفة متراكمة وحسّ تاريخي وإدراك لطبيعة المجال العام السوداني. لذلك تجاوزت كثير من أفكاره مناسباتها المباشرة لتلامس أسئلة أعمق تتعلق بالدولة والمجتمع والسلطة والدين والديمقراطية.

وفي تقديري، يُعَدُّ حيدر إبراهيم علي من أبرز المفكرين والمثقفين السودانيين الذين أسهموا في تشكيل النقاش الفكري، خصوصاً

في قضايا الإسلام السياسي والديمقراطية والعلمانية ودور المثقفين. فقد كان يتعامل مع الديمقراطية بوصفها ممارسة وثقافة ومؤسسات تحتاج إلى تأسيس اجتماعي وفكري. ومن هذا المنطلق، ارتبط نقده لمشروع الإسلام السياسي بسعيه إلى الدفاع عن دولة مدنية ديمقراطية تقوم على المواطنة والتعددية والحرية والمساواة، ولا تحتكر فيها جماعة بعينها حق تعريف المجتمع أو تقرير مصيره. ولم يكن النقد عنده غاية مستقلة، بل جزءاً من محاولة بناء بديل فكري وسياسي؛ فمواجهة الاستبداد لا تكتمل برفضه، وإنما تحتاج إلى تصور واضح للمجتمع الذي نريد بناءه. وكان انحيازه إلى قيم الحرية والعدالة راسخاً، مما أتاح له مساءلة القوى السياسية والاجتماعية المختلفة مع احتفاظه بموقف واضح من قضايا الديمقراطية والاستبداد. وهذا الاستقلال كان اختياراً لموقع نقدي يسمح له بالدفاع عن المبادئ دون إخضاعها لحسابات التحالفات والمصالح. وفي ذلك تجسّد للمثقف الملتزم الذي لا يفصل الكتابة عن المسؤولية الأخلاقية تجاه المجتمع.

وقد مثل مركز الدراسات السودانية أحد أبرز التعبيرات العملية عن مشروعه، فأراد له أن يكون مؤسسة بحثية ومساحة لتدريب الشباب وإنتاج المعرفة وتنظيم الحوارات والتواصل مع مختلف الاتجاهات الفكرية والسياسية، ومنبراً لمناقشة قضايا التغيير والديمقراطية والمجتمع المدني، وقد أسهم في توسيع المجال أمام الخطاب النقدي والتقدمي.

ومن هنا نفهم أيضاً انفتاحه على المجتمع المدني والقوى السياسية الديمقراطية ومختلف الفاعلين في الحياة العامة. فلم يكن يفترض أن جهة واحدة تمتلك الحقيقة أو تستطيع إنجاز التغيير بمفردها، فقد كان يدرك أن بناء مجتمع ديمقراطي يتطلب الحوار والعمل المشترك بين المثقفين والباحثين والصحفيين والناشطين والتنظيمات المدنية والقوى السياسية المؤمنة بالديمقراطية.

وكان الرهان على الوعي جوهر مشروع حيدر. فالظلم والفقر والاستبداد لا تنتج بالضرورة تغييراً منظماً؛ إذ يحتاج الناس إلى فهم أسباب معاناتهم وامتلاك أدوات المبادرة والحوار. لذلك ظل حيدر منشغلاً بالبحث والكتابة وبفتح المجال لاكتساب المعرفة وممارسة النقد والمشاركة في الشأن العام. فقد كان يرى أن التغيير يتطلب تحولاً في طريقة فهم المجتمع

وفي قدرته على مساءلة السلطة وإنتاج البدائل. وعندما أتأمل تجربته، أرى أن وحدة مشروعه تتجلى في العلاقة بين الكتابة والبحث والعمل الفكري المؤسسي. فاهتمامه بالديمقراطية ونقده للإسلام السياسي وانشغاله بأزمة المثقفين وتأسيسه مركز الدراسات السودانية ورهانه على الشباب، كلها حلقات مترابطة في مشروع يسعى إلى تحرير الفكر من الانغلاق وتوسيع مساحة الحرية في المجتمع وبناء تقاليد راسخة للنقاش العام. وتكمن أهمية هذا المشروع في أنه يقدم التنوير ممارسة تتحقق من خلال البحث والتفكير والنشر والحوار.

لقد أتاحت لي محطاتي معه، من منتديات مركز الدراسات السودانية في الخرطوم إلى لقاءات القاهرة، ومن الكتابة إلى النقاش، أن أرى كيف يمكن للمثقف أن يؤثر في الآخرين بما يكتبه وبما يتيح من فرص للتعليم والنقد والمشاركة. فقد كان يمنح الشباب مساحة للتجربة ويستقبل اعتراضاتهم، ويعامل الحوار بوصفه جزءاً من إنتاج المعرفة.

تكتسب تجربة حيدر أهمية تتجاوز منجزه الشخصي إلى الأسئلة التي تتركها للأجيال الجديدة: كيف نبني دولة ديمقراطية؟ وكيف نؤسس لمجتمع يتسع لتعدد؟ وكيف نحول المعرفة إلى قوة قادرة على مواجهة الاستبداد وإعادة بناء الحياة العامة؟ ومشروعه بطبيعة الحال لا يقدم إجابات نهائية عن هذه الأسئلة، لكنه يصر على إبقائها مفتوحة أمام البحث والنقد والحوار، وعلى أن تجاوز الأزمة السودانية يحتاج إلى عمل فكري ومجتمعي متواصل.

كرّس حيدر جانباً كبيراً من حياته لفهم جذور الأزمة السودانية وفتح أفق لمعالجتها، وسعى من خلال كتبه ومركز الدراسات السودانية إلى بناء مساحة يصبح فيها الفكر ملاذاً للحرية، والنقد ممارسة طبيعية، والاختلاف مدخلاً إلى المعرفة. وتلك هي القيمة الأعمق لتجربته؛ راهن على وعي يتشكل بالبحث والحوار والممارسة، ويمنح السودانيون القدرة على تخيل مستقبل مختلف والعمل من أجله.

رحم الله الدكتور حيدر إبراهيم علي رحمةً واسعة. إن الوفاء لسيرته والاحتفاء بمنجزه المعرفي يقتضيان العمل على توثيق تجربته وجمع كتاباته ودراساته ومقالاته وصون مكتبته ومقتنياته المعرفية وإتاحتها للأجيال الجديدة من الباحثين والدارسين، بما يحفظ ذاكرة مشروعه ويضمن استمرارية أثره.



في رثاء حيدر موت الأب

يرثي مظفر حيدر إبراهيم والده المفكر السوداني حيدر إبراهيم، مستعيداً ذكريات الطفولة والغربة، ودفع العلاقة الأسرية التي جمعتهم، وانفتاح والده على أبنائه وأصدقائه من الطلاب السودانيين، الذين احتضنهم منزله في المغرب ومصر.

ملخص

يستعيد سنوات عيشهما معاً في الخرطوم، حيث لمس عن قرب نشاط والده وإنتاجه الفكري الغزير وانضباطه، مؤكداً أن شخصيته تشكلت من تجارب وعوالم متعددة، صهرها في تجربة إنسانية وفكرية متماسكة.

يصف حيدر أباه بالزهد في المال والماديات، والتسامح ورقض العنصرية، والتمسك بالمبادئ، مشيراً إلى أن أخلاقه ومواقفه اليومية جسدت قيم الديمقراطية والحرية والتعايش، بعيداً عن الشعارات.

يختتم الرثاء بالإشادة بصمود والده وعطاءه حتى خلال سنوات المرض، ومحبة زوجته حياة التي رافقته، معتبراً أن حيدر ترك إرثاً فكرياً وأخلاقياً سيبقى، بخلاف مشروع الإسلاميين الذي خلف بلداً ممزقاً وأهلاً مشردين.

حامد والدبوس وحرفنة أشرف وصحبة عمو الدين وبوكو ومنتصر ومحمد الفاتح ولطافة سناء وحيوية جلاء وغيرهم الكثيرين ممن كان أبي أبا وصديقاً لهم في الغربية ينصحهم ويصاحبهم ويشاكلهم.

كان ذلك أيضاً أمراً عادياً، ربما اعتقدت أن كل الأطفال يعودون من المدرسة ليواصلوا تعليمهم في بيت عامر بشباب جميل في عمر الزهور.

من امتيازات أن يكون والدي حيدر، هي تلك البيئة الغنية المتنوعة التي نشأت بها بدون شعارات. فعندما يظنني أحدهم «مثقفاً» كوالدي، أرفض (التهمة) مُصراً أنني زول كمبيوتر ساي، وأنديرا هي مثقفة الأسرة. وهذه حقيقة. ثقافتني - إن وجدت - فهي كالتدخين السلبي، فكيف كان بإمكانني ألا أتعلم أو أتثقف مع أب كهذا وبيئة كهذه؟

قبل المغرب - وقبل أنديرا حتى - أتذكره وهو يلقني دروساً ظن أنها تتناسب مع عمري. كان يجعلني أردد (قروش كثيرة شين، قروش شوية حلو...)، كان يجعلني أردد لها كنشيد في عربية صديقه، وكانت مرسيدس فارهة، ربما مطاوعة له أو تذكيراً لنفسه لكرهه للقروش والماديات (وسخ الدنيا).

كرهه للماديات هو أحد ثوابته، وهي امتداد لسنين طفولته بالإشلاق (منازل الشرطة)، التي حكى عنها بإسهاب في سيرته، فطبيعته وفطرته هي حب المشاركة وكره التملك. فهو مات دون أن يملك بيتاً أو عربية أو مدخرات. وفي سنيته الأخيرة، كان سعيداً (أنه ما عنده خمسة جنيه في جيبه). كأبناء، ربما اتغضنا قليلاً من زهده هذا في المال، أو في أنه أمضى عشرة أعوام في ألمانيا دون الحصول على جواز سفر يقيه ويقينا شر الكيزان والجنجويد، لكنه كان راضياً قنوعاً سعيداً حتى النهاية. في موضوع الباسبورت، كان له حديث أخير مع ابن عمته المفضل أمير حسن بدري، أثناء رقدة في المستشفى، حيث سأله أمير (اسه لو عملت جواز، وقروش، مش كنت مشيت مستشفى كويس في بلد كويسة...)، رد عليه أنه مستعد أن يستبدل قروش وباسبورتات الدنيا كلها ببيت في الإشلاق.

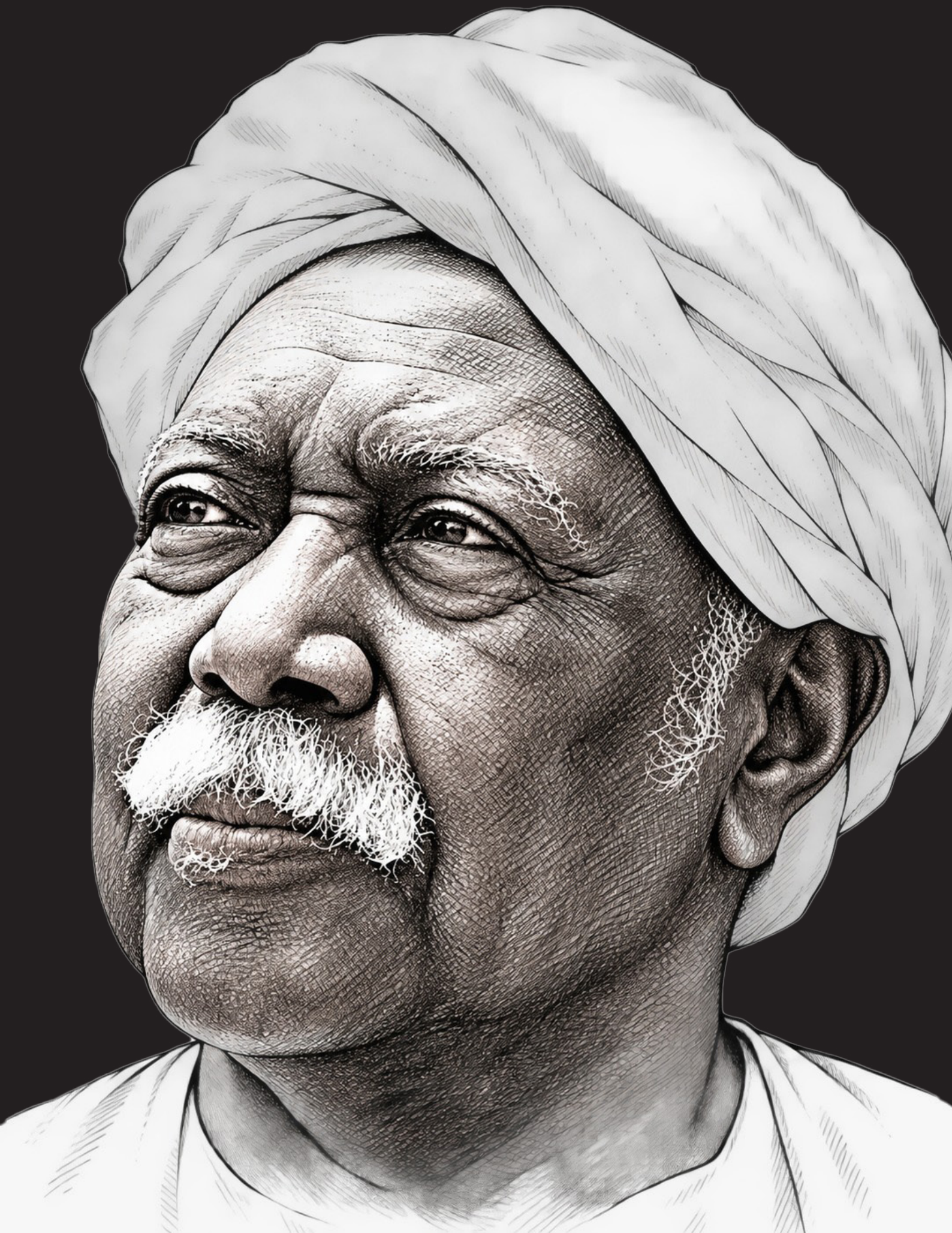
بيئة الإشلاق والتنقل في أنحاء السودان مع جدي ضابط البوليس، ربما علمته أيضاً التسامح وتقبل الآخر. فشعار «الوحدة في التنوع» الذي تبناه المركز في كثير من فعالياته، لم يكن مجرد شعار بالنسبة له. في لقطة أخرى،

كان تفسير أبي لتمردات مراهقتي، ومناوشاتي (الخفيفة) معه، أنها محاولة مني لقتل الأب - مجازياً. كان يحاورني - بعقلانيته المعهودة - بأنه ليس بالأب الذي يُقتل. الآن بعدما لم يعد موته مجازاً، أجدني أعود للقطات ونقاشات عديدة كتلك جمعتني به، متفقاً معه بأنه فعلاً ليس بأبٍ عاديٍّ وليس بأبٍ يُقتل أو يموت.

أبدأ بلقطة في عمر العاشرة بالقاهرة. عند عودة والدي من العمل، كنا نقابله - أنا وأنديرا - بطقس تعودنا عليه. نغني فرحين (بابا جا بالقلبة، بابا جا بالعدلة). يحتضننا، ويسألنا عن مدرستنا، ويحكي لنا طرائف يومه - كان هناك دائماً طرائف ونوادير في تلك الأيام من عمر المركز - ويستمتع لحكاوي وحكاوي أنديرا قبل حتى أن يضع حقيبته. بالنسبة لي ولأنديرا، كان هذا طقساً عادياً، ربما اعتقدنا، في ذلك العمر البريء، أن كل الآباء بهذا اللطف والبشاشة. في واحدة من تلك الأيام، كانت تزورنا إحدى صديقات بيتنا المفضلات (عزة الكد). تابعت طقوسنا باهتمام، ثم توجهت لي بالكلام (يا مظفر، إنتو طوالي بتتلاقو كده؟ أوعى تفتكر الحاجة دي عادية..).

أجدني أعود إلى تلك اللقطة البسيطة مراراً هذه الأيام. ربما لأنها أول مرة اكتشفت فيها (امتياز) أن يكون والدي هو حيدر إبراهيم. وهو امتياز لا يتعلق نهائياً بالكتاب أو المفكر، فذلك ربما هو الأب الذي استهدفته أحياناً بالمناوشات، بل بإنسان ثر جميل وديع متسامح ومتناسق مع نفسه ومن حوله، رغم الرياح والقلق. أعود إلى تلك اللقطة لأن سنين السفر والغربة وأخيراً الأبوة، جعلتني أقدر صعوبة ما فعله أبي وظل يفعله، مع أسرتنا الصغيرة أولاً، وأنه فعلاً (ما حاجة عادية).

قبل سنين القاهرة، هناك لقطات من المغرب. في الرباط، تحول بيتنا إلى سفارة للطلبة السودانيين، بعد أن نفضت سفارة الكيزان يدها عنهم. مع (أولاد المغرب)، حضرت أول فيلم أجنبي معهم وبدأ هوسي بالسينما، وبدأ شغفي بالكرة معهم بهزيمة ثقيلة لفريق الطلبة السودانيين، ومعهم تعلمت أنديرا أغاني مصطفى سيد أحمد وأصرت أنها هي (الحبيبة البتغني لينا). واعتبرنا عمو صلاح (الزين) عمّاً حقيقياً، وناظم، عمنا الحقيقي، كان وظل أقرب أصدقائنا. تعلقنا على أيديهم بسودان مجرد abstract على صورة أحمد



دوماً ما لخصت والدي بالنسبة لي، أتذكر جيداً عندما تلفظ أحد أقربائنا بلفظ عنصري في بيتنا. كان رد فعله عنيفاً، فالعنصرية - خصوصاً عنصريتنا السودانية - كانت خطأ أحمر حقيقياً له. وهو لا يتهاون في الرد بحدة - في كتاباته كما في حياته اليومية - عندما يتجاوز أحدهم ما يعتبرها خطوياً حمراء. كنت في أولى ثانوي، يوم سمعت ذلك اللفظ العنصري لأول مرة. ورغم أنني تعرفت على العنصرية مبكراً نسبة لترحالنا كثيراً بين دول غير مرحّبة، لكنني استغرقت 13 عاماً كي أتعرف على عنصرية أبناء جلدتي. هي، دون شك، نشأة محمية من كثير من القبح وأمتياز آخر وتناسق لم أقدر ندرته وقتها - حتى وسط المثقفين والمستنيرين.

برضو ما حاجة عادية. في موضوع الثوابت، كان والدي يكرّر، على وزن سارتر والبرجوازية، أن بينه وبين الحركة الإسلامية السودانية (عداء لن ينتهي إلا بموتي أو بموتها). ربما لأنهم في تجربتهم السودانية تجسيد حي لكل ما كرهه: البؤس والعنصرية والمادية والبذخ والفساد. فمن مآسي السودان، أنه حُكم بعصاة أخذت من الدين مظاهره وطقوسه فقط، بينما كفره ملحدون (كما نعتوه مراراً) مثل أبي وغيره من اليساريين والمحدثين هم من تخصلوا بأخلاق الدين، حتى إن تركوا ظواهره.

وفي (كُفر) والدي، أذكر أحد ظرفاء أسرتنا جاء لبيتنا في الحلفاية وعرض عليه سيجارة. فرفض أبي لأنه لا يدخن. فرد قائلاً (إنت يا حيدر، لا بتسجّر، لا بتسكر، لا حق نسوان.. طيب الكافر لها شني؟!)

والدي - وغيره من مستنيرين كثر - هم بلا شك المؤمنون الحقيقيون، بينما الكيزان أقنعونا - شعباً كاملاً - أن الدين هو أن نصلي ونصوم فقط، ولا يهم بعدها إذا سرقنا وأفسدنا وأرسلنا جنودنا يقتلون ويغتصبون ويعذبون باسم الدين.

وهنا لا يسعني إلا أن أتخيل سوداناً موازياً بصورة أبي وأصدقائه (الكفرة). سودان متسامح كصديقه جادين، ثابت متمسك بمبادئه كفاطمة والتجاني والجزولي، مثقف عميق كالصاوي، ولطيف محب كمحمد مراد، ودؤوب مُنتج كوالدي. لكننا اخترنا - ولم نجبر تماماً - سوداناً عنصرياً متزمتاً فاسداً على صورة نافع وعلي عثمان وغيرهم. وقد أخطأ والدي حين ظن أن معركته تنتهي

بموته. فبينما يترك الكيزان الأموال والبيوت (ودهبنا) لأولادهم، ترك لنا عتاداً وأثراً فكرياً سيعيش ويُقرأ بعد عقود، بينما «فكرهم» ومشروعهم الحضاري أعطانا بلاداً ممزقة وأهلاً مشردين، وصفحتين ثلاثة من «الانتباهة» وما شابها.

وبعد المغرب ومصر، كانت الفترة التي صادقت فيها والدي حقيقة. سنين السودان، وعيشنا معاً كـ (عزّابة) في الخرطوم. عشنا سوية بمفردنا قرابة الأربعة أعوام، تحولت خلالها علاقتنا - المقربة أساساً - إلى علاقة صداقة. فرد.

تعرفت عليه من جديد. عرفت، مثلاً، أن أبي طبّاح ماهر. عرفت حدود هوسه وحبه للكورة. جعلني هالابياً مثله، وقام بتحويل انتماؤه من ريال مدريد بوشكاش لبرشلونة رونالدينيو مجاملة وحباً لي. اترجنا على الدوري الإسباني أسبوعياً في التلفزيون الذي اشتريته إبان كأس العالم 2006، ثم لم أشارك بعدها - حسب قوله - بجنيه واحد في الميز. حكى لي قصص شبابه كلها، بدون فلاتر ولا قصص. وبدأنا، أنديرا وأنا، وقتها إقناعه بضرورة كتابة سيرته الذاتية - لنا نحن قبل الآخرين.

كانت أيضاً الفترة التي رأيت فيها نشاط ودأب والدي عن قرب. فكان يومه يبدأ في الخامسة صباحاً أو قبلها. وكان يغتاط مني لأني لا أنهض قبل التاسعة إلا بدقائق، لألبس على عجل وأقطع الشارع لمحل عملي. عندما يتعجب الآخرون من إنتاجية ومردود والدي، لا أشاركهم التعجب. فقد رأيت كيف أنه في الوقت الذي كنت أبدأ فيه يوم عملي، يكون هو قد اشتغل وقرأ وكتب ما يزيد عن الأربع ساعات. ولا توجد خصلة تغيب أبي مثل الكسل، فهو يزعل، حقيقة، مما يعتبره إمكانيات وطاقات مهدرة. ينطبق غيظه علي وعلى المقربين منه، لكن أيضاً على السودان والسودانيين وإمكانياتنا المهدرة بصورة عامة.

وكان من المضحك المبكي بتلك الفترة أنني اندمجت في السودان بسلاسة رغم أنني لم أعش به سوى سنوات معدودة في طفولتي، لكنه كان يعاني. يعاني من مواعيدنا السودانية وعدم التزامنا وعدم جديتنا. كنت أقول له - كأنها نبذة - إنه ألماني أكثر من اللازم.

وألمانيته هذه - بصورتها النمطية - هي غالباً مصدر جديته وتركيزه وإنتاجه الغزير. لا أعتقد أن (حيدر الإشلاق) وحده كان سينتج هذه

المكتبة الضخمة وكل هذه المشاريع الطموحة، لكن (حيدر الألماني) لم يكن أيضاً له وحده أن يكتب بهذا التوغل في الروح والشخصية السودانية. فهو - ككثيرين من متعلمي جيله - نتاج عوالم كثيرة متناقضة، من الإشلاق للقضارف لمعهد المعلمين لجامعة فرانكفورت بألمانيا، لكن ما يميزه برأيي هو أنه تمكن من صهر هذه العوالم في كيان متناسق، ليس فقط في كتاباته وأعماله، بل في شخصيته وحياته اليومية.

هذا التناسق أمر نادر. فحتى في اليسار المتفتح نسبياً، أعتقد أنه من النادر أن يتجاوز تفتح المثقفين عالم الكتابات إلى العلاقات والمواقف اليومية بأبنائهم وبناتهم ونسائهم ومجتمعاتهم. فديمقراطية أبي ليست في كتاباته، بل في الحرية التي منحها لنا حتى حاولنا قتله، وتسامحه تجسّد في بيته المرحب بالسودانيين بكل أشكالهم ومللهم وميولهم، ونسويته ليست شعاعاً في ندوة، بل هي أنديرا، بنته التي فاقت كل الرجال علماً وثباتاً وثقة بالنفس.

وهذا الصهر لعوالم مختلفة متناقضة هو ربما أيضاً ما كان يحتاجه السودان. فكما كتبت أمانة النقاش في رثائه، عن رمزية مرضه ووهنه الذي جاء متلازماً مع مرض ووهن السودان، فالיום أجدي أعيد قراءة سيرته الذاتية كأنها سيرة السودان نفسه، فلا أعرف بلاداً عاشت أزمنة الريح والقلق والحرية كما عاشتها بلادنا. لكن أبي تغلب على الريح والقلق، بالجدية والتعب والمجهود والصحى (بدري).

هذا المجهود والتعب يمكنه أن يمزج ألمانيا بالدويمات والقضارف، ويخرج جمالاً. ونقيضه هو حالنا الآن.

اللقطات الأخيرة مع والدي كانت في مرحلة الـ(اكسترا تايم) أو الوقت الإضافي كما أسماها. من حظ والدي و(خير الدنيا) عليه أنه قد رأى بعينيه (يوم شكره) بعد الوعكة الصحية التي ألمت به في التشيك عام 2016، وانتهت بعملية قلب مفتوح معقدة، لم تكن لتتم لولا كرم أصدقائه ومحبيه. انهالت محبة الناس عليه من كل صوب وحذب، ومن كرم الدنيا، أنه رأى وسمع هذه المحبة بنفسه، فكثيرون هم الذين لا نغمرهم بتقديرنا إلا بعد موتهم.

سماها الاكسترا تايم واعتبرها زيادة في عمره، وأصر على رد جميل هذه الزيادة بمزيد من الإنجاز والعطاء. فكتب وخطط

واشتغل، كأنه ما زال في مقتبل الشباب. ورغم أن كتاباته وإنتاجه لم تكن بجودة وتركيز ما قبل المرض، فللعمر أحكام، إلا أنه واصل العمل والحلم - وطلب المستحيل - بلا انقطاع. فمن خير الدنيا عليه أيضاً، أن جعلته يشهد ثورة ديسمبر وجيلها العظيم، وفرح بهم كما لم يفرح من قبل، وأمن حقيقة بقدرات هذا الجيل، رغم الانتكاسات. وعاد بالمركز ثانياً وبدأ يخطط المستقبل بمشاريع أكبر وأكثر طموحاً، بعد أن ظن، كغيره، أن السودان قد عاد حتماً.

وعندما غادر السودان مجدداً مع الحرب، أصر ألا نؤجر إيجاراً طويلاً لأننا (راجعين بعد شهرين)، رغم تحذيرات مالك البيت السوري أنهم قد رددوا نفس الكلام قبل 15 عاماً.

كثر خير الدنيا التي أرتنا - نحن أبناءه - مثلاً حياً لقوة الحب وسموه في صورة علاقته بأمي (حياة). لا أعلم إن كان وراء كل رجل عظيم امرأة، لكنني أعلم أن سيرة ومشوار حيدر إبراهيم لم تكن لتكون دون حياة. قبل المرض، كنا، أنا وأنديرا، دوماً نتندر بحبهما لبعضهما البعض. خبرهم بسخرية أن حباً بهذا الشكل (غيب في عمرهم ده). لكنهم لا يهتمون ولا يابتهون لحسادتنا. ففي مجتمع جاف معسّم يكتف الحب والمشاعر، علماًنا جمال وقوة أن تحب بدون خجل أو مواربة. وإن كان حبهما الجم سراً معلناً قبل المرض، فإنه تحول إلى علاقة تسمو فوق الكلمات بعده، في سنين مرضه الأخيرة. كانت حياة دوماً صديقه وحبيبته، لكنها أصبحت جليسته وممرضته وسكرتيرته وعيونه عندما استعصى عليه ممارسة عشقه الآخر: القراءة.

كثر خير الدنيا أن وهبتني نجماً قطبياً، ينير طريقي ويوريني السكة الصاح - حتى إن لم أتبعها دوماً - في العمل والأخلاق والحياة والحب.

وأخيراً كثر خير الدنيا أنه رأى حفيدته «فيروز»، التي صادقها وغمرها بمحبة من نوع آخر. وأدخلت، هي، عليه بهجة من نوع آخر. فرغم الوهن، رقص معاها على أنغام وردي وشارع النيل وHit the road Jack، وفرجها على Sound of Music وWest Side Story ووضاها رغم أنها لم تتجاوز الأربعة أعوام بعد، وضاها أن (قروش كثيرة شين، قروش شوية حلو...).

ونغم الوصية. رحم الله والدي، وأسكنه مع الزاهدين والمستنيرين والنبلاء.



الكمدة بالرمدة

أمير عبدالله خليل.. تاريخ ناصع

أمير أحمد السيد

يرصد مقال «الكمدة بالرمدة» لأمير أحمد السيد سيرة الراحل أمير عبدالله خليل، مستعيداً ملامح أم درمان بوصفها مدينة للتنوع والاستنارة والثقافة، وبيئة أسهمت في تشكيل شخصيته وقيمه الإنسانية.

ملخص

يستعرض إسهاماته في العمل الطوعي وخدمة المواطنين، خصوصاً خلال رئاسته مجلس إدارة مستشفى أم درمان التعليمي، إلى جانب مواقفه الإنسانية تجاه السودانيين خلال عمله الدبلوماسي في روما ويوغندا والعراق والأردن.

يبرز المقال نشأته في أسرة وطنية عريقة، وتربيته على النزاهة واحترام الآخرين والمساواة، بعيداً عن الامتيازات العائلية، وتمسكه بالجرأة في إبداء الرأي وقول الحق.

يخلص الكاتب إلى أن إرث الراحل الحقيقي لم يكن في المناصب التي تقلدها، بل في محبته للناس وخدمة البسطاء وقضاء حوائجهم، وهي قيم تجلت في الحضور الكبير لمشيعيه وشهاداتهم المؤثرة في إنسانيته ونبله.

أم درمان، تلك المدينة الواقعة على الشق الأيسر لنهر النيل الخالد، بدأت بقصة حب عظيمة منذ الأزل؛ ففيها يلتقي أزرقها بأبيضها، ويحتضنان بعضهما في حالة حب وعشق ووله، ذلك الحب الممتد على تلك الأرض العظيمة، والتي نشأت على ذلك الحب الكبير، فاجتمع فيها الناس من كل حذب وصوب، عاشوا وتصاهروا وانصهروا في تلك البوتقة، فخرجت فيها أجيال وأجيال مختلفين فكراً وسلوكاً، متقدمين في كل شيء. لغتهم واحدة، فيها من كل لهجات السودان. كانت هي أول مفاتيح الفكر والأدب والثقافة والفنون والثورة والنضال، ونشأة الحركات السياسية والاجتماعية وتطورها.

أم درمان حكاية حب وفكرة لا تشبهها فكرة أخرى.

هذه الفكرة العظيمة بُنيت على قيم وأخلاق فاضلة، وكأنما كان اجتماع أهلها من الغرب والشرق والشمال والجنوب قد جاء ليمنح الناس هذا النموذج المختلف، فأنصهر الناس في هذه البوتقة وتلاقحوا وأنتجوا جيلاً مختلفاً، أهم ما يميزه الوعي والاستنارة، فكان لهم نصيب الأسد من كلية غردون التذكارية، وقادهم طموحهم لتطوير أنفسهم وأدواتهم، فكانت أم درمان هي المدينة التي حظي أبنائها بأوضاع مختلفة نتاجاً لجهدهم وجدهم واجتهادهم.

وقد كانت أم درمان هي مهد الفنون والثقافة والأدب والعلم، فأنشأ الشيخ أبو القاسم هاشم المعهد العلمي، والذي وجد إقبالاً كبيراً من عموم أهل السودان.

وسط هذا الجمال، برزت شخصية مختلفة تشبه فكرة هذه المدينة.

أمير عبدالله خليل، الرجل المختلف فكراً وسلوكاً

كنت وما زلت أتحدث دائماً عن أن مدينة أم درمان عبارة عن (فكرة) عظيمة، فكرة البوتقة التي انصهر فيها جميع أهل السودان، عاشوا فيها بحب وتحنان ووفاء عظيم لهذه المدينة التي احتوتهم... وأمير الأم درمان القح جزء لا يتجزأ من هذه الفكرة العظيمة. كيف لا، وهو ابن أم درمان البار بها وبأهلها؟ كيف لا، وهو ابن هذه المدينة التي خبرها وخبرته جيداً، أحبها وأحبته حد العشق والوله؟ بعد أن شرف هذه المدينة خارجياً بتقلده أرفع المناصب، عاد إليها يبحث عن الرفاق والأصدقاء، وهم كثر، يطوفون في كل أحيائها.

وهذه الفكرة العظيمة كانت قد اكتملت بزواجه من ابنة خاله، السيدة الفضلى نادية عبد الحليم

محمد كامل، رفيقة دربه التي وقفت إلى جواره وساندته ودعمت هذه الفكرة العظيمة.

أمير سوداني أصيل في كل تفاصيل حياته، وإنسان نبيل أحب البسطاء من أبناء هذه المدينة، ما دفعه بقوة للعمل الطوعي من أجلهم فقط. وكم كانت حظوظ هذه المدينة عظيمة حينما أتى على رأس مجلس إدارة مستشفى أم درمان التعليمي، حيث عمل بجد ومثابرة واجتهاد كبير في رفعة وتقدم هذا المستشفى، من أجل توفير خدمة مثالية لإنسان هذه المدينة. ورغم المرض، إلا أن الرجل كان يأتي على كرسيه المتحرك، باسمًا بشوشًا، يجلس لساعات طوال، يبني هنا ويستقطب الدعم والمعدات، ويقف على تحسين مستوى الخدمات هنا وهناك، إلى أن أصبح هذا المستشفى مستشفى مرجعياً.

أصبح متاحاً لمريض القلب والمخ والأعصاب ومريض السكري والأنف والأذن والحنجرة، كل ذلك بإمكانات كبيرة جداً.

قد نحتاج إلى مجلدات كبيرة إذا أردنا الحديث عن جوانب كبيرة من حياة الراحل أمير في كل جوانبها، خاصة الجانب الإنساني، فالرجل موسوعي، بدأ منذ طفولته مختلفاً، وهو قد وُلد في جيل الاستنارة، الجيل الذي وجد أمامه نسمات الحركة الوطنية في أربعينات القرن الماضي، وهو من عاش في كنف والده، الرجل الذي شهد له التاريخ، الأميرالاي عبدالله بك خليل. لم يكن ذلك الرجل عسكرياً فحسب، بل مهندس تخرج في كلية غردون، ثم ولج العسكرية وناضل من أجل استقلال السودان، ووقف إلى جانب ثوار 24. في هذه الأجواء المفعمة بالحرية ونسمات الديمقراطية، نشأ الأمير شاباً يافعاً قوياً، متمسكاً بقيم ومثل وأخلاق هذه المدينة الفاضلة. نشأ بسيطاً، يجري ويلعب في أزقتها. لم يكن أمير ابن البية أو رئيس الوزراء، نشأ بفكره وطور نفسه، كان يقود المظاهرات ووالده على سدة الحكم في السودان، ويقول رأيه بجرأة، ولا يخاف في قول الحق لومة لائم.

حكى لي الراحل عن أنه كان يعشق العسكرية، متأثراً بالأجواء من حوله، صرامة والده العسكري وابن عمه السيد السفير ميرغني سليمان خليل. وبالفعل، تقدم للكلية الحربية، لكن قام أحد الضباط بجلب الامتحان له بالمنزل، حينها علم الأميرالاي عبدالله خليل بذلك، فقام بتأنيبه هو والضابط الذي أتى بالامتحان، وقال للأمير: ارفض هذا الأسلوب، فهذه الفرصة أولى بها أحد أبناء السودان. كان هذا الموقف هو جزء من تربية أمير التي نشأ عليها داخل منزل البية.



تربى على احترام الآخر والأخلاق الفاضلة وقيمة الإنسان أولاً وأخيراً، لذا نجد ذلك الأثر واضحاً جلياً في تعامله وفي علاقاته الإنسانية مع عمال المنزل والبسطاء من الناس. كان يمشي بينهم بسيطاً، ويعاملهم بحب، ويشعر بمسؤولية كبيرة تجاههم وتجاه مشاكلهم وقضاياهم الكبيرة والصغيرة.

كانت أخبار الأمير تصل إلى أم درمان من مكان عمله في روما، فالرجل كان يلتقط كل سوداني زائر إلى إيطاليا إبان فترة عمله بروما، يقف إلى جوار الجميع ويسهم في حل مشاكلهم. كان سفارة متحركة، يمتلك إحساساً كبيراً جداً بالآخر وبمسؤولية تجاه الآخرين.

حكى لي صديق عمره، السيد فيصل ساتي، عن أنه أراد وزوجته زيارته في روما، لكنهما لم يريدوا أن يخطرا بتلك الزيارة، فغادرا إلى روما وفي نيتهما مفاجأته، لكن كانت المفاجأة الكبرى أن وجداه في مطار روما أمامهما.

هكذا كان الأمير في كل مكان عمل فيه، يهتم بالجميع: البعثات الدبلوماسية والفنية والرياضية، وكل قادم من السودان. هكذا كان في

روما ويوغندا والعراق.

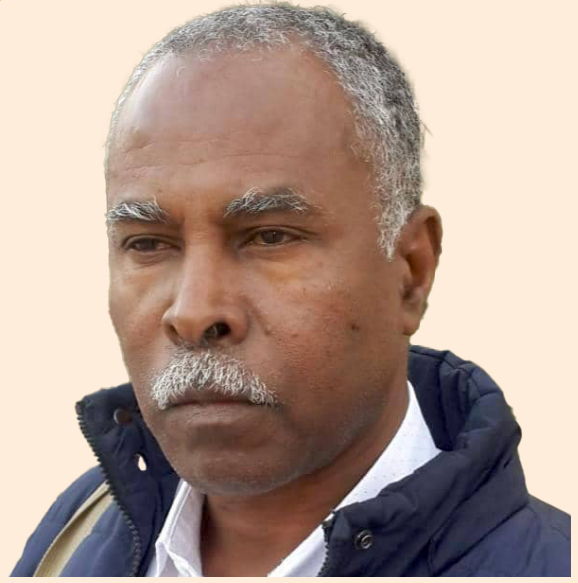
لم تصبني الدهشة والاستغراب حينما رأيت الجموع والجيوش الجارية من البشر، أتوا من كل فج عميق، والدموع على المقل والوجوه عبوسة في خيمة العزاء. كان الأمير حاضراً؛ ما إن تجلس لمجموعة حتى يبدأ الحكى. بعضهم تعرف إليه في روما، وبعضهم تعرف إليه في يوغندا، وآخرون في العراق والأردن. قصص وحكاوى من داخل البقعة، الجميع يحكي عن إنسانية الرجل، الجميع يحكي عن عظمة الرجل وأخلاقه الفاضلة، الرجل الذي أحب الناس وعشقهم، ودخل إلى قبره آمناً مطمئناً برفقة طفل رضيع. هكذا أراد له رب العالمين مجالسة الأخيار في الدنيا، وأطفال يحملونه بأجنحة الملائكة إلى جنات الخلد آمناً مطمئناً، إن شاء الله.

حكاوى وقصص الأمير، كما أسلفت، كثيرة جداً على المستوى الإنساني، فالرجل ينطبق عليه الحديث القدسي عن الرسول الكريم، صلوات الله وسلامه عليه، أن: «لله عباداً اختصهم بقضاء حوائج الناس، حبيبهم للخير وحبب الخير إليهم، أولئك الآمنون من عذاب يوم القيامة».

عباس علي عبود

مسرحية

الدُعاش



لوحة أولى:

تقرع النقارة عاليًا. يمضي الإيقاع إلى البعيد، يتلاشى... يعلو أزيز الرصاص، ثم يهدر دوي المدافع. تلمع الشظايا تطرّز الظلام الدامس... من اليمين يدخل شيخٌ واهن، عارٍ إلا من خرقةٍ حول وسطه، يتوكأ على عصا رفيعة. تسقط دائرة من الضوء الخافت تتابع الخطوات الحائرة الخائرة. عند الوسط توقف مواجهًا النظارة، عظام وجهه ناتئةٌ وبعينيه وميض آمال خابية. رفع عصاه عمودياً إلى السماء، وحوله اشتعلت الدائرة ضياءً. الجسد النحيل يرتعش، والعصا الرفيعة تتدلى في مسار دائري حتى تلامس الأرض. ترنح الشيخ، ثم ثهاوى، ودائرة الضوء تخبو رويدًا، رويدًا...

إظلام

لوحة ثانية:

امرأة شعناء يسترها ثوبٌ كالح، وبجانبيها ابنتها تساعدها على المسير. الفتاة تتطلع إلى كل الجهات بحثًا عن ماء، وعلى كتفها تتأرجح قربة. تكومت الأم عند الوسط خائرة القوى، بينما الفتاة تتراكم في جميع الجهات، تحديق إلى البعيد عليها تبصر ما يدلها على الماء، والظلمة يجرش الحلق والأوردة. قطعت البنت سبعة أشواط، بينما الأم تحتضر... قلبت الفتاة أمها، وضعت أذنهما على الصدر

مكان القلب الهامد، ثم نهضت يجللها الأسى والذهول. هرولت تمزّج بيديها الهواء، بينما صرخاتٌ تتواتر في البعيد. تكومت قرب الجسد الهامد متسرّبةً بالنشيج. نهضت، ظلت مصلوبةً، وهجير اللحظات يلفح الوجدان... فكّت اللاوي الملفوف حول جسدها، غطت أمها وجلست بقربها. جموعٌ تاكله تنوح في البعيد. جرجرت خطواتها إلى الوراء، وبصرها مسمرٌ على الجسد المغطى... إيقاعٌ خافتٌ يأتي من البعيد، يزحف الظلام بطيئًا، ونعيق الغربان يمشط الأعالى...

إظلام

لوحة ثالثة:

إضاءة:

شجرةٌ محترقة نهاوى نصف جذعها الأعلى، فتدلت أغصانها إلى الأرض. بقايا أغصان وحشائش جافة، بعضها محترق، عظامٌ مبعثرة... من اليمين يدخل جندي الغابة على كتفه بندقية. يجوس ببصره وخطواته المكان. تفرّس طويلاً في النظارة، مشط حافة الخشبة مرارًا كالباحث عن وجهٍ وسط الجموع. حدّق إلى قدميه، انحنى، قعد على أمشاطه، وكفه اليمنى مرتعشة تلامس التراب. أصغى لصوتٍ قادم من البعيد. نهض، مشى خطوتين إلى الوراء، انحنى مرةً ثانية راکعًا على ركبتيه، مرّغ كفيه في التراب، مغمغمًا:



- الأرض محروقة... الأرض.

أرسل بصره إلى أفق ما:

- والسماء يابسة

الأرض هامة

والسماء.

تتواتر أصداً خافتة: «المطر، المطر»... نهض
بغثة مشرعاً كفيه إلى السماء يهذه الظمأ
والتعب. أصداً ریح تعربد، حدّق إلى الفراغ:
- هاجر المطر

فتاهت الغزلان والنمور والبقر

هاجر المطر!

أصابع كفه اليسرى تلازم حلقه المجروش
بالظمأ، وخياله يطارد نهراً هارباً:

- الظمأ لعين، يومان وثلاث ليال أطلب ماء

أطلب ماءً أو إنساناً، أو برقاً يلّمع في السموات

يومان وثلاث ليال...

أشرع كفيه إلى السماء؛ مبتهلاً:

- أيها الرب

يا أرواح الأسلاف والعشيرة

قطرة ماء... قطرة ماء...

وخز موجع يناوش حلقه:

- ساجد الماء، ساجد الطريق الآخر.

ضياء الشمس جميل.

هل تهاجم الذئب ليلاً؟

يطاردني صدى غواثها، ولكني سامضي.

ساجد الماء.

مشط المدى فزعاً:

- هل أحرقوا الغابة؟!

هل أحرقوها؟

انحنى، تناول تراباً أدناه من أنفه:

- لا طيرٌ يعبر

لا إنسان حي

لا قطرة ماء.

همهم مقلّباً كفيه:

- وموسم المطر

المطر، المطر، المطر...

لمح الشجرة المحروقة، تقدم نحوها بحذر،
اقترب، تعثر في عظمة آدمية. كان جندي الحكومة
مستنداً إلى الجذع المتهاك، يحدّق إلى المجهول،
ساعده الأيمن مجروح، لقه بكم القميص. بغثة
صوب جندي الغابة البندقية إلى غريمه صارخاً:
- انهض، ألق سلاحك وزمزية الماء.

رمى جندي الحكومة البندقية، ثم فكّ الزمزية
من وسطه ورماها. هجم جندي الغابة على
الزمزية، رفعها إلى فمه متابعاً غريمه ببصره.
رمى الزمزية الفارغة زافراً حارقة وأسى. انحنى،
التقط البندقية الأخرى، فتح خزانتها، أخرج

رصاصاً واحدةً أودعها في جيبه.

- ارفع يديك عالياً... تقدم.

تقدم جندي الحكومة خطوتين. عاجله جندي
الغابة بالأمر:

- قف عندك؛ أين الماء؟

...

- قلت لك أين الماء، ألا تسمع؟!

انطق أين الماء؟

تقدم جندي الغابة خطوة، أسند بندقيته إلى
صدر الآخر الساهم بعيداً:

- أين الماء؟ انطق.

- لا يوجد ماء.

- لا يوجد ماء!!

تراجع جندي الغابة خطوتين، محدثاً نفسه
بهمس مسموع: عطشان هو؛ عطشان أنا:

- عطشان أنت؟

ومن أتى بك إلى هنا؟

اعتدل جندي الحكومة في وقفته، ثم أجاب:

- أنا جندي...

جندي الغابة مقاطعاً:

- ومن دعاك كي تكون من عسكر الحكومة؟

- أنا جندي هذا الوطن.

- ونحن من نكون؟!

عصاة

قد ملئت الرخاء والعدالة

فهاجرت
بحثاً عن الدماء
عن مناطق الإثارة
نحن من نكون؟!
هيا تحرّك أمامي.
بعد خطواتٍ توقفا يتأمل كلّ منهما غريمه في
حيرةٍ عاصفة:
- أين الماء؟
صرخ جندي الغابة، تعثّر في عظمة، انحنى؛
رفعها بيسراه:
- وهذه لمن تكون؟
- وأنت من دعاك كي تقاتل الحكومة؟
ضحك جندي الغابة، تهدّج صوته... تحشرج:
- من دعاك كي تكون من عسكر الحكومة
تقتلع الأشجار من جذورها
وتحرق البذور
وكل قريةٍ
أو عشّةٍ صغيرة
يحيلها رصاصكم سعيراً.
سقطت العظمة من كفه:
- عظامٌ ورمادٌ ويباب
سماءٌ خراب
رمادٌ ويباب
أين الماء؟
هيا تقدم أمامي.
جندي الحكومة:
- لا يوجد في هذا الطريق ماء. ثلاث ليال وأنا
تائه بين الأشجار وعواء الذئاب. الظمأ سيقتلنا،
وأنت تبدّد جهدك في الصراخ.
- اصمت.
- فلنجرّب الاتجاه الآخر.
- قلت لك اصمت.
لا يوجد ماءٌ
لا بريق في السماء
لا شجر أخضر
لا...
انظر، الأرض يبابٌ والسماء خراب.
من دعاك كي تكون من عسكر الحكومة؟
جندي الحكومة يشير بيديه إلى جميع
الجهات:
- إنها بلادي، كلمتي الأخيرة
عن أرضها
عن مياهها الوفيرة
أموت إن أردت
أعيش إن أردت
لا أبتغي شكوراً.
جندي الغابة يغالب الظمأ:

- هل دعتك غابة النخيل مرةً
كي تشعل النيران في المجاهل البعيدة؟
أم هل قرأت في جذوعها المديدة
تعويذة الأجداد
والأمجاد
والبطولة
فجئت غازياً
وحاملاً راية الخراب
والوزارة الجديدة!!
صوّب جندي الغابة إلى السماء؛ انطلقت
رصا صتان:
- لا تبدّد الرصاص، فالليل وشيكٌ والذئاب
تترصد خطواتنا.
- أعرف أنها تشم رائحتنا.
- انتبه، أسمع صوتاً.
ريحٌ تزار، وكلاهما يتابع الآخر في ترقّبٍ
وحذر. هتف جندي الغابة:
- إنها رياح الخلاص تحمل السحاب والمطر.
- بل هي ريحٌ عقيم.
- قلت لك إنها رياح المطر، ألا تسمع؟
- إنها ريحٌ عقيم.
- لا تعاندني.
- هل ترى سحاباً؟
هل تسمع دويّ الرعود؟
هل تشم رائحة الدعاش؟
إنها ريحٌ عقيم!!
الريح تزار، والأضواء تغرب، والجنديان
مصلوبان على شفير الهلاك. صرخ جندي
الحكومة:
- الماء... وجدت الماء.
تسابقا زحفاً؛ تشابكت أكفهما، تخضبت
بالطين، نهضا يغمغان: «الماء، الماء، الماء»...
تقرع النقارة خافتةً ثم تمضي، يتواتر عواء
الذئاب، وجحافل الظلام تهيمن على المكان. قال
جندي الحكومة بصوتٍ آمر:
- أعطني سلاحي.
- ماذا تقول؟!
- أعطني سلاحي، ألا تسمع عواء الذئاب؟
- لا أسمع، لا أسمع.
- إنها قادمة لا محالة.
- سأقاتلكم جميعاً.
- هيا ناولني البندقية لنقاتل معاً، فالظمأ
والذئاب والريح تحاصرنا.
جندي الغابة يتناول عظمةً من تحت قدميه،
يفرك طرفها بأصابعه، يشمّ الرميم، ثم يلتفت
إلى الشجرة:
- مرةً في الطفولة اشتعلت سماء القرية

أحدهما الآخر، وما أن لحا الفتاة وسط الخشبة
مغمى عليها حتى تسابقا إلى قربة بجوارها...
تعاركا عليها؛ جرّب كل منهما القربة الخاوية
بلا جدوى. وكأنما أبصرا الفتاة لتوّهما، أشهر
كل منهما سلاحه في وجه الآخر. دارا حولها
يقاومان الانهيار. حين تحركت الفتاة، أرخى كل
منهما بندقيته مستنداً إليها مقاوماً السقوط،
بينما الفتاة تنهض رويداً، رويداً...

□□□

**الدعاش: مسرحية كتبت في القاهرة،
ونشرت في جريدة الخرطوم في مارس
1995. قدمها الطلاب السودانيون بمدينة
أوديسا، على مسرح قصر الطلاب يوم
السبت 11 نوفمبر 1995. تمت كتابتها مرة
أخرى نقلاً عن الخشبة، ونشرت في جريدة
الأيام يوم السبت 8 ديسمبر 2007.**

سطور عن المؤلف

عباس علي عبود، روائي وقاص. كتب الشعر
والمسرحية، ولد في السودان. النيل الأبيض. الكوة
صدرت له مجموعة أعمال هي:
- سهيل الفجر الغامض: (مجموعة قصصية)
الحضارة للنشر- القاهرة 2008
- طقوس الرحيل: (الطبعة الثانية) الحضارة
للنشر- القاهرة 2009
- مرافئ السراب: (رواية) الحضارة للنشر- القاهرة
2010
- قبش من مدارات الحنين: (رواية) القاهرة
2012
- أساطير الأنهار: (رواية) القاهرة 2013
- السارية: (رواية) الهيئة المصرية العامة للكتاب
2016
- مفازة الإياب: (رواية) القاهرة 2017
- طير الإشراق: (رواية) درا الريم للطباعة
والنشر- الخرطوم 2020
- الدعاش: مسرحية كتبت في القاهرة ونشرت
في صحيفة الخرطوم في مارس 1995 قدمها
الطلاب السودانيون على خشبة مسرح قصر الطلاب
بمدينة أوديسا على البحر الأسود. يوم السبت 11
نوفمبر 1996
- ما تيسر من أقوال الشهود: (مسرحية)..
- شظايا الأحلام: (شعر).

بالرعود. احترقت شجرة المانجو أمام كوخنا،
استحالت إلى رماد، لكن المطر انهمر؛ يغسل
الشجر وظهور البقر.

جندي الحكومة يواجه النظارة:

- ومن يكون؟

متمرد أم فارس يثور

قاتل أم جاء يستجير

من يكون؟!

ينتبه جندي الغابة إلى غريمه:

- انظر... الأرض يباب والسماء خراب.

- المطر، المطر.

- الأرض خراب والسماء يباب.

- المطر، المطر.

يتواتر صدى صوتيهما ويمضي:

- الأرض يباب.

- المطر.

- والسماء خراب.

- المطر.

تناول جندي الحكومة سلاحه الممدود إليه.

جلس يحشو الرصاص، بينما يلاحقه السؤال:

- والآن حدثني عن أهلك عن نفسك. أنت من

تكون؟

جندي الحكومة يرتل واهناً:

- مات والدي، في سنة المجاعة

وإخوتي، أصغهم مات في الرضاعة

وأمي التي تركتها

حزينة ملتاعة

في ربوة

يحيطها السراب واليباب

وغابة الحطب.

يندلع عواء الذئاب قاسياً وفاجعاً.

إظلام

لوحة رابعة:

موسيقى ناكلة تمضي إلى البعيد. ضوء
يسقط من أعلى على جسد الشيخ، ثم ينداح
خافتاً. يدخل الجنديان يغالبان الظلم، يفتشان،
يجوبان الخشبة حتى يعثرا على الشيخ... يدوران
حوله بحثاً عن أثر للماء. يتبادلان النظرات، ثم
يتعاونان على حمل الجسد الهامد ويخرجان...
إظلام

لوحة أخيرة:

موسيقى تولول. إضاءة خافتة تسطع مع
الموسيقى المتصاعدة. يدخل الجنديان يسند



إبراء جراح السودان.. المصالحة الوطنية

السر السيد

يتناول مقال «إبراء جراح السودان.. المصالحة الوطنية» للسر السيد كتاب البروفيسور عطا البطحاني، الصادر عام 2013، الذي يناقش فرص المصالحة الوطنية في السودان ومعوقاتها، مستنداً إلى مقاربات سياسية واجتماعية ونفسية وتجارب أفريقية في بناء السلام.

ملخص

يشدد على أن تجاوز آثار الحروب يستلزم كشف الحقيقة، وسماع روايات الضحايا، والاعتذار، وتحمل المسؤولية، وتحقيق العدالة الجنائية والتصالحية، بما يساعد على إحلال التعايش السلمي محل الخوف.

يؤكد الكتاب أن المصالحة لا تبدأ وتنتهي بالاتفاق مع حاملي السلاح، بل تتطلب فهم جذور الصراعات وتداخل العوامل السياسية والعرقية والثقافية والاجتماعية، إلى جانب تحديد آليات واضحة لتحقيق المصالحة وإدارة عملية إبراء الجراح.

يرى الكاتب أن عودة الحرب في السودان بصورة أكثر شراسة في 15 أبريل 2023، بعد عشر سنوات من صدور الكتاب، تطرح سؤالاً جوهرياً حول إصرار السياسيين على تغليب مصالحهم الشخصية على المصالحة الوطنية، والحاجة إلى أعمال العقل والقلب والعاطفة لبناء مستقبل يسوده السلام.

المصالحة الوطنية:

إبراء الجراح السودان

أد. عطا الحسن البطحاني

المجلة: الفكر الديمقراطي



فالكتاب، الذي يتناول «تعريفات المصالحة وإبراء الجراح، وعملية المصالحة، وكيفية إدارة عملية إبراء الجراح، وتقديم تجارب مقارنة من أفريقيا، ودراسة حالة السودان بالكشف عن الملامح والتكوينات السياسية لسودان ما بعد الحرب والتحديات الماثلة، وأخيرًا الخاتمة والتوصيات»، إنما يفتح بابًا جديدًا يلج منه المفكر إلى مقارنة قضايا سياسية يطفو فيها العرقي والثقافي على الطبقي والاجتماعي، ويتداخل فيها الخاص مع العام. ولأن هذه القضايا كذلك، يعجز الخطاب



(إبراء جراح السودان) عنوان كتاب للدكتور عطا البطحاني، وهو من منشورات «المجموعة السودانية للديمقراطية أولاً - برنامج الفكر الديمقراطي». صدر الكتاب في العام 2013، وهو الكتاب رقم (8) في «سلسلة قراءة من أجل التغيير»، التي يحررها ويشرف عليها الباحث والكاتب الأستاذ شمس الدين ضو البيت. ومن بين أهداف هذه السلسلة، بوصفها مشروعًا فكريًا استثنائيًا، الإسهام في إيصال منظومة فكرية إلى عامة الناس، يشارك في إنجازها باحثون وأكاديميون وكتاب من مختلف المشارب والاتجاهات، وفي مختلف مجالات الحياة السودانية وأسئلتها الملحة.

بروفيسور عطا الحسن البطحاني أكاديمي وباحث وناقد، له مساهمات نظرية مقدرة في حقول الاقتصاد السياسي، ودراسات الحرب والسلام، وطبيعة القوى الاجتماعية في السودان، والتحول الديمقراطي. ومن مؤلفاته كتاب «أزمة الحكم في السودان: أزمة هيمنة أم هيمنة أزمة؟»، وكتاب «التعثر الديمقراطي في السودان»، وكتاب «الطبقة الوسطى في السودان: مقدمات نظرية وتطبيقية». كما أولى اهتمامًا كبيرًا بلجان المقاومة في السودان، ولعل مما يمكن ذكره هنا كتابته الصحيفة الموسومة بـ (دور لجان المقاومة المحلية في الفترة الانتقالية بالسودان)، التي ترجمها الأستاذ صلاح محمد خير، ونشرتها صحيفة التغيير الإلكترونية في 15 فبراير 2022

عن الكتاب:

ترجم الكتاب من اللغة الإنجليزية إلى العربية الأستاذ شمس الدين ضو البيت، ويقع في 86 صفحة من القطع المتوسط. وبالرغم من أن الكتاب يتصدى لقضية شائكة، هي قضية المصالحة الوطنية في السودان ما بعد النزاع، وفرص هذه المصالحة ومعيقاتها، فإنه توصل في عرض أفكاره ومقارباته شديدة التعقيد، متينة التشابك؛ بأسلوب جميل وممتع يشد القارئ إليه شدة. وكيف لا، والكتاب، وهو يسبر أغوار موضوعاته، يتخذ من مختلف العلوم والمناهج رافعة ودليلاً يمنحان مستخلصاته وجهة وقوة؛ بدءًا من العلوم السياسية، مرورًا بالأنثروبولوجيا وعلم النفس والنقد الثقافي، ووصولًا إلى مناهج فض النزاعات وبناء السلام، والقانون، وفن السرد وكيفية بناء الحكايات.



شمس الدين ضو البيت



دكتور عطا البطحاني

أما من مقولات الكتاب/الدراسة، فإليك هذه المقولة:
«وتواجه المجتمعات التي تمر بعملية مصالحة مجموعة من المهام تشمل: قول الحقيقة، وتحري الحقيقة، ورواية القصص الحقيقية، والاعتذار، والإقرار بالمسؤولية، وإقامة العدالة الجزائية والتصالحية. هذا كتاب صغير الحجم، عظيم الفائدة، مليء بالرؤى والأحزان والخوف والجراح والأفكار الخلاقة... فاقراءوه».

فائدة:

من بين ما يتركه هذا الكتاب من أثر أننا نحتاج إلى أعمال العقل والقلب والعاطفة ونحن نتحاور حول موضوعتي الحرب والسلام؛ فالمصالحة، وأعني هنا المصالحة التحريرية، تحتاج إلى قلب شجاع، وعاطفة رحيمة، وعقل يعرف كيف يشتري المستقبل. ولأننا لم نعمل العقل والقلب والعاطفة، فهذا هي الحرب تعود بصورة أشرس في 15 أبريل 2023، أي بعد عشر سنوات من صدور الكتاب. فيا ترى، لماذا يصر السياسي السوداني على تحسس مصلحته الشخصية عندما يسمع كلمة (مصالحة)؟ وعبارة (إبراء الجراح).

السياسي السوداني السائد، وقد عجز بالفعل، عن تشخيصها أو تقديم الوصف السليم لها؛ فيصبح من العادي أن نتحدث عن الصراع القبلي في السودان، دون أن نجهد أنفسنا في البحث عن الأسباب الأخرى التي تقف وراءه. ويصبح من العادي جداً أن نتحدث عن المصالحة الوطنية وإيقاف الحرب، دون أن نجهد أنفسنا في معرفة ماهية هذه المصالحة، وما مستحقاتها، وما آليات تنفيذها؛ لأننا كنا باستمرار، ولا نزال، نعتقد أن المصالحة تبدأ وتنتهي بالاتفاق مع حملة السلاح وحدهم. إن مساهمة بروفيسور البطحاني تستخدم عناوين جميلة ومعبرة، وهي تقوم بهذا التدخل الحميد، كما أنها، وهي تقارب موضوعاً سودانياً، تستخدم لغة معاصرة، وتستند إلى مفاهيم عالمية تمتد جذورها في الحضارة الإنسانية، وتضع كل ذلك في سياق شديد القابلية للتحاور مع المقولات المركزية المشتركة في حضارة اليوم.

وإليك بعض هذه العناوين:
إحلال التعايش السلمي مكان الخوف.
المجزرة والصدمة. التجربة الفردية والخيال الثقافي.
دور الذاكرة.
الزمن لا يشفي كل الجراح.

«الهلال» يضع قدمًا في دور المجموعات ، و«المريخ» يراهن على رواندا لقلب الطاولة!

خطا الهلال خطوة عملاقة نحو دور المجموعات لدوري أبطال إفريقيا، عقب عودته بفوز ثمين ومستحق من معقل مضيفه سيداما بونا الإثيوبي بهدفين دون رد. وفي المقابل، عاد غريمه التقليدي المريخ بخسارة ضيقة بهدف نظيف من العاصمة الغينية كوناكري أمام نادي حوريا، لترتفع حدة الترقب في انتظار معركة الحسم على ملاعب الإياب.

ملخص





أفق جديد

الهلال يتفوق

بدأ فريق الهلال أم درمان المواجهة بصورة مثالية للغاية على الأراضي الإثيوبية، حيث فرض أسلوبه مستفيداً من ضغط مبكر أثمر عن هدف أول جاء بنيران صديقة بعدما أسكن مدافع سيداما بونا الكرة في مرماه بالدقيقة 11، ليضع أصحاب الأرض تحت ضغط نفسي عصيب.

ورغم محاولات الفريق الإثيوبي المتكررة للعودة في النتيجة خلال شوطي اللقاء، إلا أن التنظيم الدفاعي للأزرق حال دون ذلك. وفي الوقت الذي كانت فيه المباراة تتجه لنهايتها، أبت قذائف الهلال إلا أن تبصم على تأكيد التفوق؛ إذ ظهر القائد والهداف محمد عبد الرحمن «الغربال» ليوقع على الهدف الثاني ببرود أعصاب في الدقيقة 90، مؤمناً انتصاراً غالباً بشباك نظيفة.

بهذه النتيجة، بات الهلال يمتلك هامشاً مريحاً من الأمان للتعامل مع لقاء العودة، بينما سيكون النادي الإثيوبي مطالباً بمعجزة تعويض الفارق بثلاثة أهداف كاملة لقلب الطاولة.

المريخ يتعثر

على الجانب الآخر، لم تكن رحلة المريخ إلى

غينيا مفروشة بالورد، إذ تكبد الفريق خسارة بهدف دون مقابل أمام مضيفه حوريا كوناكري، في مباراة اتسمت بالندية والتقارب. وحسم أصحاب الأرض اللقاء بهدف وحيد سجله اللاعب ياخوبا باري في توقيت قاتل مع نهاية الشوط الأول.

ورغم مرارة النتيجة، إلا أن الخسارة بهدف وحيد أبقت باب الأمل على مصراعيه وأبقت بطاقة التأهل معلقة. وسيتجدد اللقاء بين الطرفين يوم السبت 24 أكتوبر الجاري على ملعب المريخ الافتراضي في رواندا، حيث سيكون «الزعيم الأحمر» أمام اختبار حاسم ومطالباً بتدارك الموقف وجماهيره لانتزاع بطاقة العبور للمجموعات.

نتائج متباينة في بقية المواجهات الإفريقية

شهدت مباريات ذهاب الدور التمهيدي الثاني نتائج لافتة أخرى على مستوى القارة؛ أبرزها فوز رينجرز إنترناشونال النيجيري على مولودية الجزائر بثنائية نظيفة رغم النقص العددي، وبالنتيجة ذاتها تفوق سكوتلاند إف سي الزيمبابوي على بترو أتلتيكو الأنغولي. وفي صراع عربي إفريقي آخر، حسم التعادل السلبي مواجهة ماميلودي صنداونز الجنوب إفريقي ومضيفه ويلييتي سبورت، لتؤجل كافة حواسيب التأهل إلى موقعة الحسم الأسبوع المقبل.